الفصل الأول

الطرح الإسلامي تجاه

بعض قضايا الفكر السياسي المعاصر

obeikandi.com

ثمة بعض القضايا والأفكار ذات الأهمية في الفكر السياسي المعاصر ، ومن المجدي والضروري معاً ، أن نقف على عناصر الطرح الإسلامي تجاه هذه القضايا .

فنظرية السيادة من القضايا التي أثارت إشكاليات ومعضلات جسيمة في الفكر السياسي الغربي ، ولكن الإسلام وقف منها موقفاً نموذجياً فريداً ، وانتهى بها إلى أصلها ومنبعها الذي انبعثت منه ، وكشف عن أهداف هذه النظرية ، ومرامي مبتدعيها ومعتنقيها ، فلم تُثر نظرية السيادة للإسلام أية مشاكل ، ولم يفلح في التشويش على صفاء المعتقد ، ولم تحدِث أي تثبيط في مقدرة الإسلام على التعبير عن نفسه والتعامل مع الدخيل وتطويعه .

أما بالنسبة إلى نظرية الدولة ، فالتعرض لها من خلال الطرح الإسلامي وجيه لسببين :

السبب الأول : أن الدولة هي إحدى الطروحات المهمة التي أفرزها الفكر السياسي العالمي ، ولا تزال تلعب دوراً محورياً في الفكر السياسي المعاصر ، وترتبط ارتباطاً عضوياً بعلم السياسة والظاهرة السياسية ، إلى حد أن تعامل معها البعض على أنها هي السياسة عينها ، وجوهر الظاهرة السياسية .

السبب الثاني : أن الدولة تمثل جزئية مهمة في النظرية السياسية الإسلامية ، وقد رأينا تناولها في جزئية مستقلة ، انطلاقاً من تلك الأهمية .

وبالنسبة إلى نظرية النظام السياسي ، فهي مثل نظرية الدولة تدفعها أهميتها في الفكر السياسي المعاصر إلى احتلالها موقعاً متقدماً في سلم ترتيب مفردات النظرية السياسية الإسلامية .

ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث كالآتي :

المبحث الأول : السياسة والحكم في الإسلام ونظرية السيادة .

المبحث الثاني : السياسة والحكم في الإسلام ونظرية الدولة .

المبحث الثالث : السياسة والحكم في الإسلام ونظرية المنهاج الإسلامي

[النظام السياسي] .

obeikandl.com

المبحث الأول

السياسة والحكم في الإسلام ونظرية السيادة

السيادة مفهوم وُلد ونشأ في كنف الفلسفة والنظرية السياسية ، ودفعت به إلى حيز الوجود ظروف محددة ، تمثلت في حالة عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي التي سادت أوربا بشكل عام وفرنسا بشكل خاص خلال القرن السادس عشر ، فقد كان مفهوم السيادة أساس الفلسفة السياسية للمفكر السياسي الفرنسي جان بودان ، الذي كان أول من استعمل هذا المفهوم في كتابه الضخم " ستة كتب عن الجمهورية " وعرَّف بودان السيادة بأنها " السلطة المطلقة الدائمة " التي يجب أن تسود المجتمع وتحكمه ، ويرى بودان أن السيادة ينبغي أن تتركز في يد الملك وحده ، حتى يتمكن من السيطرة على الأوضاع ، ولكن على الملك أن يحكم متقيداً بالقانونين الطبيعي والإلهي .[1]

مما تقدم يمكن استخلاص ما مفاده أن مفهوم السيادة قد جاء على يد جان بودان كرد فعل على الأوضاع في أوربا عموماً وفرنسا خصوصاً ، كما أنه لم يستطع أن ينادي بوضع السيادة في يد الملك دون قيود ، وقد تمثلت تلك القيود في القانونين الطبيعي والإلهي .

وعلى النقيض مما تقدم ، ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ظهر توماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو ، ونادوا بأن تكون السيادة للشعب ممثلاً في أفراد المجتمع ، كما حددوا خصائص السيادة في :[2]

---

[1]. جورج سباين ، تطور الفكر السياسي ، الكتاب الثالث ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٥٥-٥٦٢ .
[2]. جان توشار وآخرون ، تاريخ الفكر السياسي ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٣٢-٣٣٨ .

أولاً : أنها لا تُفوض .

ثانياً : وأنها لا تتجزأ .

ثالثاً : وأنها مطلقة ولا قيود عليها .

رابعاً : وأنها دائماً على حق ولا تخطئ .

مما تقدم يتبين أن مبدأ السيادة ذا المنشأ الأوربي ، هو مبدأ ذرائعي تبريري ، يستخدمه كل من يطمح في السيطرة والنفوذ على مقدرات المجتمع ، ويملك زمام الأمور .

بعد ذلك تفتت مفهوم السيادة واتجه اتجاهات شتى ، وبدأ يستخدم كمفهوم قانوني أكثر منه مبدأ سياسي :

أولاً : في مجال القانون الدولي العام : تمثل مفهوم السيادة في سلطة الدولة على إقليمها وشعبها ، في مواجهة الدول الأخرى والمنظمات الدولية المخاطبين بالقانون الدولي .

ثانياً : وفي مجال القانون الدبلوماسي والقنصلي : تجسد مفهوم السيادة في حدود المهام الدبلوماسية والحصانات التي يتمتع بها ممثلو الدول داخل الدول الأخرى .

وليس لمفهوم السيادة وجود في مفردات الحكم والسياسة في الإسلام ، ليس لأن الشريعة الإسلامية أو الدين الإسلامي لا يمتلكان أساليب ووسائل التعامل مع مثل هذه المسائل ، وليس لأن الفكر الإسلامي متهم بأنه صورة أخرى من صور الحكم الديني المستبد ، الذي مارسه حكام أوربا في العصور الوسيطة كما سبق الإيضاح ! .

ولكن الإسلام من الرحابة والتطور بما يجعله يتجاوز مثل هذه المفاهيم الذرائعية المقوتة ، ولا يلتفت إليها " فالإسلام يرفض فكرة الكهنوت ، والإسلام يمثل بالنسبة لأهله رسالة وحي تُستمد من القرآن والسنة ، والإسلام يهتم بالإنسان وإقرار سلطاته واجتهاده في تقرير القوانين والضوابط وتحديدها والتعبير عنها في إطار فكر الجماعة " .[1]

وانطلاقاً من الإطار الإسلامي الذي يقوم على مبدأ التوحيد ، وتخصيص مركز الألوهية فيه للخالق ، فإن التمييز بين نظام الحكم في الإسلام وسواه من الأنظمة المعاصرة هو في مصادر التشريع ، لا في السيادة أو في سلطة تقرير إلزامية قواعد قانونية بعينها دون أخرى وصياغة دون أخرى " .[2]

" فالإنسان المسلم بإسلامه قد أعلن وقرر مختاراً ، قيمة الرسالة المحمدية — القرآن والسنة — مصادر أساسية لفكره وفلسفته وعلاقاته ، ومصادر المعرفة ، وفهمه للحياة والكون وما وراء الكون ، وهذا الإعلان هو قرار واعي متجدد متعلق بالإرادة الإنسانية في الوقت الذي أنكرت الفلسفات والمجتمعات الغربية قيمة الوحي والتوجيه الإلهي للحياة البشرية وأهدافها كمصدر من مصادر المعرفة ، وقصرت ذلك على علم الإنسان وحده واجتهاده ، وكلنا يعلم ما كان يمكن أن تكون عليه الجماعات الإنسانية لو أنها رفضت مصادر المعرفة الإلهية ، التي توالت بها الرسالات ، وقام على أساسها كيان الجماعات وعلاقاتها الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ، وأصرت على مصدر المعرفة المادي الحسي وحده " .[3]

---

[1]. د. عبدالحميد أبو سليمان ، السياسة والحكم في الإسلام ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٢٤-٣٢٥ .
[2]. المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .
[3]. المرجع السابق ، نفس الصفحة .

" إن تميز نظام الحكم في الإسلام ليس في أمر السيادة ، ومن الذي يكون بيده حق تقرير الإلزام وحدوده في النظام العام ، والتعامل مع السلطات التنفيذية والحكم ولكن الفرق هو في مكان الوحي الإلهي ورسالاته من مصادر المعرفة في المجتمع الإنساني ، وبالتالي مصادر التشريع الأساسية لنظام الحكم الإسلامي ، إن جوهر الخلاف والتمييز بين النظام الإسلامي وسواه هو في إسناد مقام الألوهية إلى الخالق العليم وحده ، وتقرير القرآن والسنة المحمدية مصدراً للتشريع الأساسي في نظام الحكم الإسلامي ، حفظاً لحقوق الإنسان واستقراراً للمجتمع وإطاراً للشورى ، ومثل هذا الفهم وهذا التحديد لا مجال فيه للشعوذة والكهنوت والدجل ، وما ينبثق عنها مما يسمى بالأنظمة الثيوقراطية أو التيموقراطية في فكر الغرب "[1] .

إن نظام الحكم في الإسلام يعرف بدلاً من مفهوم السيادة " مبدأ توزيع الأدوار " ، ففي المجتمع الإسلامي لكلٍ دوره الذي يقوم به على أكمل وجه :

أولاً : الشريعة الإسلامية ممثلة في القرآن والسنة :

تتولى مهمة التشريع في ما يتعلق بالأصول والأسس والعموميات ، وما حوته من أحكام شرَّعها الخالق عزَّ وجلَّ ، واختار لخلقه الانصياع لها .

ثانياً : الحاكم أو الأمير أو ولي الأمر :

يتولى مهامه التي حددتها له الشريعة والمتمثلة في :

---

[1]. المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

* إقامة شرع الله .

* تحقيق مصالح الرعية .

* إعمار الأرض بالإنماء والتطوير .

* الدعوة إلى دين الله .

ثالثاً : الأمة أو الجماعة لها مجموعة مهام حيوية تتمثل في الآتي :

* الأمة هي التي تختار الحاكم وتبرم معه ميثاق البيعة الذي يحدد اختصاصات كل طرف وكذا حقوقه وواجباته ، وهذا هو الدور الأساسي للأمة في الظاهرة السياسية من وجهة نظر الإسلام ، وهو الدور المنشئ لصلاحيات الحاكم أو ولي الأمر ومسئولياته التي تحددها المرجعيات الإسلامية وتنعقد له فور مبايعته .

* الأمة أو الجماعة تتولى مهمة حيوية تتمثل في تزويد وإمداد الحاكم بمن يحتاج إليهم من المعاونين والمساعدين ، وهذا هو الدور التنفيذي للأمة .

* للأمة أو الجماعة كذلك مهمة حيوية أخرى تتمثل في تزويد وإمداد الحاكم بمن يحتاج إليهم من المستشارين وأهل الرأي والخبرة ، للقيام بمهمتي الاستشارة والتشريع فيما لم يرد فيه تشريع إلهي ، وهذا هو الدور الاستشاري والتشريعي للأمة .

* للأمة أو الجماعة كذلك مهمة حيوية أخيرة تتمثل في تقديم النصح والإرشاد للحاكم ومعاونيه ، إذا حاد عن الطريق المرسوم له وفق شرع الله .

المبحث الثاني

السياسة والحكم في الإسلام ونظرية الدولة

الدولة كنظرية ، هي أهم مفردات علم السياسة ، وكتنظيم هي أهم تكوينات الحياة السياسية ، وإذا كان للإسلام إسهامه المتميز في ما يتعلق بمسائل السياسة والحكم فينبغي أن ينسحب ذلك الإسهام على نظرية الدولة ، بوصفها أهم مكونات السياسة ونتتبع هذا الأمر من خلال الآتي :

أولاً : الدولة في الفكر الموضوع :

الدولة هي أرقى أشكال التطور الاجتماعي ، وأهم مظاهر الحضارة والمدنية ، وثمرة جهد عقلي وفكري شاق للمفكرين والفلاسفة في مجال الظاهرة السياسية ، امتزجت بعلم السياسة إلى درجة الذوبان ، فظن الكثيرون أن علم السياسة هو العلم الذي يدرس الدولة .

بدأ تناول الدولة كفكرة في أذهان المفكرين والفلاسفة ، ثم ازدهرت فغدت لب الفكر السياسي وخلاصته ، يدرسونها كواقع بكل ما له وما عليه ، ويتخيلونها كمثال ونموذج ، وانتهى بها الأمر إلى فكرة قانونية جامدة ، ومبحث ضمن مباحث علم السياسة .

كذلك لوحظ الخلط غير المتعمد أحياناً ، والنابع عن التشويش الفكري أحياناً أخرى لدى المفكرين والفلاسفة بين الدولة والحكومة والنظام السياسي ، وكان فكر أولئك الفلاسفة والمفكرين منصباً على الحكومة وفي ذهنهم أنها الدولة ، وقد تنبه الدارسون والباحثون في الوقت الراهن إلى الفارق بين الدولة والحكومة والنظام السياسي .

* عناصر الدولة في الفكر الموضوع :

تتكون الدولة من مجموعة عناصر أو مكونات تتآلف فتكوّن ذلك الكيان الذي يصعب تعريفه ، ولا يحبذ الكثيرون إجهاد الذهن بتعريفه ، لأنه مدرك وملموس في جانب وفكرة مجردة لا تدركها الحواس في جانب آخر ، ومن ثم فكلنا يعرف الدولة جيداً في فكره وذهنه ، ولكنه لا يستطيع أن يضع لها تعريفاً يرضيه ، وعلى أية حال فلابد أن نتوقع مثل هذه الإشكاليات الفكرية في كثير من المفاهيم والمدركات الخاصة بالظواهر الإنسانية .

وعن عناصر الدولة ومكوناتها ، يلاحظ أنها تتكون من العناصر التالية :

- المواطنون :

العنصر الأساسي في تكوين كيان الدولة هو المواطنون أو الشعب ، والمقصود بالمواطنين الأفراد التابعين للدولة ، والذين يحملون جنسيتها ، أما الأجانب المقيمين على إقليم الدولة فلا يدخلون في تكوين هذا العنصر ، ولا يوجد معيار لتحديد عدد مواطني الدولة ، وبالرغم من أهمية عدد السكان كعنصر من عناصر قوة الدولة ، إلاّ أن عدد مواطني الدولة لا يعتبر عنصراً حاسماً في التأثير على موقف الدولة أمام القانون الدولي والمنظمات الدولية والدول الأخرى .

- الإقليم :

إقليم الدولة هو العنصر الثاني من عناصر تكوينها ، ويُقصد به كل مساحة الأرض التي تتبع الدولة ، ويقيم عليها مواطنوها دون تحديد لعمق معين ، وإقليم الدولة يتضمن اليابسة وما فوقها وكل ما تحتها ، وتميل كافة الدول إلى تحديد حدودها من كافة الجهات ويتم ترسيم

تلك الحدود بطرق عدة ، وقد يكون إقليم الدولة متصلاً دون تجزئة ، وقد يكون مجزئاً ، يضاف إلى ما تقدم ويعتبر من إقليم الدولة المياه الإقليمية إن وجدت .

– الحكومة :

الحكومة هي أعلى سلطة عامة في المجتمع ، ويتبعها سلطات ثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، وتتولى الحكومة تحقيق أهداف الدولة ضمن سلطاتها أو وظائفها الثلاث المذكورة ، وأحياناً يحدث تداخل — كما سبق التنويه — بين الدولة والحكومة والنظام السياسي إلاّ أن التحليل السياسي يستوجب الفصل والتحديد .

– الاستقلال :

الاستقلال عنصر مهم من عناصر قيام الدولة ، وهو يعني عدم خضوع الدولة لأية مؤثرات أو قيود خارجية تحد من قدرتها على اتخاذ القرارات المتعلقة بتنفيذ سياساتها الداخلية والخارجية ، ويعمد البعض إلى الخلط بين مفهومي الاستقلال والسيادة ، ولكن هذا الخلط لا يجد ما يبرره إذا أدركنا الفارق الأساسي بين المفهومين ، ففي الوقت الذي يأخذ الاستقلال معناً قانونياً محدداً وواضحاً ، يرمي مفهوم السيادة إلى مغزى فلسفي أكثر عموماً وشمولية .

* نظريات نشأة وتطور الدولة :

كيف نشأ هذا الكيان المعروف بالدولة ؟ وكيف تطور إلى أن وصل إلى وضعه الراهن ؟ في هذا الخصوص ظهرت نظريات ووجهات نظر عديدة ، يمكن رصدها في عجالة من خلال الآتي :

- النظرية الكنسية :

تقوم هذه النظرية التي تبنتها الكنيسة في القرون الوسيطة لتحقيق مآرب خاصة بالهيمنة على مقاليد الحكم والسلطة السياسية على افتراض دجماطيقي مؤداه : أن الله أراد وجود وقيام الدولة ، واختار لها الحكام الذين يحملون مسئولية حكمها وإدارتها ، وطالما أن هؤلاء مفوضين من قِبل الله ، فيجب طاعتهم وعدم معارضتهم ، وقد تطور هذا الافتراض إلى ما عرف بفكرة " الحق الإلهي " .[1]

- نظرية إشباع الحاجات :

صاحب هذه النظرية هو أفلاطون ، إذ يرى أن الدولة إنما نشأت بفعل حاجة الفرد للتعاون مع الآخرين ورغبته في إشباع حاجاته ورغباته عن طريق هذا التعاون ، ولكن هل يستطيع الفرد أن يلبي كل حاجاته ورغباته عن طريق انتظامه في جماعة ، حتى ولو تطورت هذه الجماعة إلى دولة ؟ هذا افتراض لا يقوى على مواجهة الواقع فالجماعة وبالتالي الدولة لا يمكنها أن تحقق إلا جزءاً يسيراً من رغبات ومتطلبات الإنسان .[2]

- نظرية التطور الاجتماعي :

يعتبر أرسطو هو صاحب هذه النظرية ، وتقوم هذه النظرية على افتراض مؤداه : أن الدولة بدأت من الأسرة التي تطورت إلى عشيرة ، فقبيلة ، فمدينة ، فدولة ، ويقبل الكثير من الباحثين في علم السياسة هذه الفكرة ، ولكنها لا تقوم بمفردها كمبرر مقنع على قيام الدولة .

---

[1]. د. إسماعيل على سعد ، المجتمع والسياسة (الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٣) ص ص ١٥٩-١٧٩ .
[2]. إبراهيم درويش ، علم السياسة (القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٥) ص ص ١٦٣-١٦٤ .

– نظرية القوة المسيطرة (العصبية) :

قال بهذه النظرية ابن خلدون ، ومفاد هذه النظرية أن الدولة ظهرت نتيجة ظهور الأسر والعائلات الأقوى في المجتمع على الأسر والعائلات الأضعف ، وقد أدت غلبة وانتصار الأقوى إلى السيطرة على الأضعف ، وبالتالي قيامهم بتكوين الدولة ، وأخذ البعض بمفهوم القوة المادية كأساس لهذه النظرية ، في حين أخذ آخرون بمفهوم القوة بشقيها المادي والمعنوي ، أي القوة والنفوذ ، ولم تجد هذه النظرية الكثير من تحمس الباحثين والدارسين في مجال علم السياسة .[1]

– نظرية العقد الاجتماعي :

بلور هذه النظرية ونادي بها ثلاثة من مشاهير مفكري عصر النهضة في أوربا هم : توماس هوبز ، وجون لوك ، وجان جاك روسو ، وتقوم نظرية العقد الاجتماعي على أن المجتمع قد انتقل من حالة الطبيعة أو حالة " اللادولة " حيث لا توجد جهة متفق عليها تملك حق فرض النظام وتطبيق القانون وإدارة دفة المجتمع ، إلى حالة الدولة ، من خلال " عقد " أُبرم بين الناس والحكومة ، حيث ظهرت حاجة الناس إلى تنظيم مجتمعهم ومنع سيادة الفوضى فيه ، وحيث تتولى الحكومة السلطة وإخضاع الناس لها ، ونظراً لما تضمنته هذه النظرية من أهداف ذات طبيعة ذرائعية تبريرية ، ونظراً لما قامت عليه من أساس تصوري خرافي متمثل في افتراض حالة الطبيعة " اللادولة " وافتراض " العقد الاجتماعي " بين الناس والحكومة ، لذا فقد ووجهت هذه النظرية بانتقادات حدَّت من جاذبيتها .[2]

---

[1]. د. محمد على العويني ، أصول علم السياسة (القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨١) ص ص ٢٣-٢٤ .
[2]. د. صدقة يحي فاضل ، مبادئ علم السياسة (جدة ، دار النوابغ للنشر والتوزيع ، ١٩٩٦) ص ص ١٦٣-١٦٤ .

مما تقدم يلاحظ أن نشأة الدولة وبروزها على أرض الواقع لا تزال غامضة ، ولم يقدَّر لأحد أن يكتشف كيف كانت تلك النشأة ، واكتفى الجميع بانتقاد ما ظهر من نظريات وآراء في هذا الصدد ، وانصرف الاهتمام الرئيسي إلى ظاهرة الدولة كوضع قائم من خلال علاقتها بالقانون والتنظيم الدولي .

* أشكال الدولة :

يتم تحديد أشكال الدولة بناءاً على معيار " مدى تعدد مراكز صنع القرار في الدولة " والذي يعني أيضاً بعبارة أخرى " وحدة السيادة أو تجزئتها "[1]، وبناءً على هذا المعيار تعارف الباحثون في مجال علم السياسة على تقسيم الدول إلى شكلين :

– الشكل الأول : الدولة البسيطة :

وهي دولة يتوحد فيها مركز السلطة ولا يتعدد[2] ، ومعظم دول العالم تأخذ شكل الدولة البسيطة .

– الشكل الثاني : الدولة المركبة :

وهي الدولة المكونة من عدة دويلات أو ولايات أو دول مستقلة أو تتمتع بالاستقلال الذاتي فقط ، ترتبط مع بعضها بهيئة مركزية مشتركة ، تنظم وتشرف على بعض أمورها وقد اتفق

---

[1]. د. إبراهيم درويش ، علم السياسة ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ .
[2]. يحي أحمد الكعكي ، مقدمة في علم السياسة (بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣) ص ص ١١٥ -١١٦ .

obeikandi.com

الباحثون في مجال علم السياسة على وجود أربعة أنواع من الدولة المركبة ، يمكن تناولها بإيجاز في الآتي :[1]

○ الاتحاد الشخصي : وهو عبارة عن اجتماع دولتين تحت رئاسة صاحب عرش واحد ، مع احتفاظ كل دولة باستقلالها داخلياً وخارجياً وبقائها كدولة ، وقد أصبح هذا النوع من أنواع الدولة المركبة في طي التاريخ ، ولا توجد منه أية نماذج قائمة .

○ الاتحاد الحقيقي : هو اتحاد دائم تكون له حكومة مشتركة واحدة تسيّر أموره الخارجية وبعض أموره الداخلية ، وتترك للحكومات المحلية تسيير الشئون الداخلية الأخرى ، وقد قامت معظم الاتحادات الحقيقية المعروفة بين ملكيات[2] ، ولم يعد ثمة نماذج من هذا الاتحاد على أرض الواقع .

○ الاتحاد الكونفدرالي : ويقوم هذا الاتحاد على اتحاد عدد من الدول المستقلة ، التي تتنازل برضاها وبصورة دائمة عن جزء من حرية تصرفها لأغراض معينة خاصة ولا تجتمع في ظل حكومة واحدة مشتركة[3] ، ويتمثل الاتحاد الكونفدرالي في المنظمات الدولية الحكومية الإقليمية المعاصرة .

○ الاتحاد الفيدرالي : هو دولة واحدة مكونة من ولايات [أعضاء] ، متحدة في ظل دستور عام يوزع السلطة بين الولايات والحكومة المركزية المشتركة ، بحيث يضمن للولايات حكم وإدارة معظم أمورها الداخلية ، بينما تتولى الحكومة المركزية إدارة العلاقات الخارجية للدولة وبعض الأمور الداخلية للولايات ككل[4] ، وتتمثل أمثلة هذا الاتحاد في : الولايات

---

[1]. المرجع السابق ، ص ص ١٥٠-١٥٣ .
[2]. المرجع السابق ، ص ١٣٥ .
[3]. المرجع السابق ، ص ص ١١٦-١١٧ .
[4]. المرجع السابق ، ص ص ١٣٢-١٣٣ .

المتحدة ، كندا ، البرازيل ، المكسيك ، ألمانيا ، سويسرا ، النمسا ، الاتحاد السوفياتي سابقاً ، الهند ، استراليا ، ونيجيريا .

ثانياً : السياسة والحكم في الإسلام ونظرية الدولة :

بإيجاز واقتضاب تناولنا نظرية الدولة في الفكر الموضوع ، وفي هذه الجزئية ننتقل إلى تناول الطرح الإسلامي تجاه ظاهرة الدولة ، كإحدى مفردات الظاهرة السياسية ، منطلقين من جملة القواعد والأصول التي تم رصدها في الجزء الأول ، وذلك من خلال الآتي :

٥ مراحل تطور المجتمع البشري في القرآن الكريم :

حدد القرآن الكريم أشكالاً ومراحل للمجتمع البشري مر بها ، ويمكننا تتبع هذه المراحل ورصد هذه الأشكال على الوجه التالي :

– الفصيلة :

هي الأسرة الأكبر أو العائلة ، وتعد الفصيلة وفق ما جاء في كتاب الله الوحدة الأساسية في التكوين الاجتماعي البشري بشكل عام ، قال تعالى " وفصيلته التي تئويه "[1] ، أي العائلة التي ينتمي إليها الفرد ، وتكون رابطة الدم في الفصيلة أقوى ما تكون .

– العشيرة :

هي تكوين بشري مؤلف من مجموعة عائلات وتكون رابطة الدم في العشيرة أقل قوة منها في الفصيلة ، قال الحق تبارك وتعالى " قل إن كان ءابآؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم

[1]. سورة المعارج : ١٣ .

وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين"[1]، فالآباء والأبناء والإخوان والأزواج يكَوّنون العائلة أو الفصيلة ثم بعد ذلك تأتي العشيرة وهي التي تلي العائلة أو الفصيلة في العدد وقوة الرابطة .

وقال تعالى " وأنذر عشيرتك الأقربين "[2]، تتضمن هذه الآية الكريمة أمراً من الحق تبارك وتعالى لرسوله بأن يبدأ بنشر الدعوة إلى دين الله ، وكانت نقطة الانطلاق دعوة العشيرة قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا عبد الله بن نمير ، عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن بن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله عزّ وجلّ " وانذر عشيرتك الأقربين " أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادي " يا صاحباه " فاجتمع الناس إليه ، بين رجلٍ يجئ إليه وبين رجلٍ يبعث رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا بني عبد المطلب يا بني فهر يا بني لؤي ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تُغير عليكم صدقتموني ؟ " قالوا : نعم قال " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله " تبت يدا أبي لهب وتب " رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

وقال تعالى " لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الأخر يُوآدّون من حآد الله ورسوله ولو كانوا ءابآءهم أو أبنآءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه،

---

[1]. سورة التوبة : ٢٤ .
[2]. سورة الشعراء : ٢١٤ .

أولئك حزب الله ألآ إنَّ حزب الله هم المفلحون "[1]، فالعشيرة جاءت في الترتيب بعد العائلة أو الفصيلة التي تضم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج .

– القبيلة :

كذلك القبيلة هي أحد أشكال التجمعات البشرية التي مرَّ بها التطور الإنساني ، وهي معروفة جيداً لدى العرب ، إذ كانت العرب في الجاهلية وحتى بعد ظهور الإسلام تُعِر مسألة الانتماء القبلي أهمية ملحوظة ، فبلاد العرب التي تمثلت في شبه الجزيرة العربية التي تشمل اليمن ، والشام ، كانت هذه البلاد مؤلفة من قبائل ، ومن اتحاد القبائل نشأت القرى والمدن ثم الأمم ، والقبيلة تتكون من مجموعة من العشائر تربطها صِلات الدم ووشائج القربى وعرى الأرحام ، قال تعالى " يآ أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبآئل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم خبير "[2]، أي ليحصل التعارف بالرجوع إلى القبيلة التي انحدر منها وينتسب إليها الفرد ، كذلك فالتعارف هدف سام مقصده إقامة العلاقات الطيبة بين بني البشر ، ويستفاد ذلك من توجيه الخطاب من الحق تبارك وتعالي إلي كل الناس ، وذلك يحمل إنكاراً للعصبية والقبلية ، فكل الناس تنتمي إلي آدم وآدم من تراب .

– الشعب :

الشعب تكوين بشري أعم من القبيلة ، فهو يتكون من مجموعة قبائل يرتبطون ببعضهم بموجب التواجد في مكان واحد ، وتسير حياتهم بطريقة وأسلوب واحد ، والشعب قد

---

[1]. سورة المجادلة : ٢٢ .
[2]. سورة الحجرات : ١٣ .

تدخل إليه عناصر بشرية لا تنتمي إلى قبائل معروفة وليس لها أصل قبلي أو عشائري معلوم ، ولكنها تعرف بانتمائها إلى الشعب الذي يسكن منطقة محددة ، وقيل أن الشعب بطن العجم كما أن القبيلة بطن العرب والسبط بطن بني إسرائيل ، وقد وردت لفظة الشعب مجموعة في الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات في الفقرة الأخيرة من البند السابق .

– القرية :

هي تكوين بشري يرتبط بالمكان أكثر من ارتباطه بالصلات والروابط الاجتماعية ، فالقرية مجموعة من القبائل يقيمون في موقع جغرافي محدد ، وتعتبر القرية أول مظاهر التنظيم العمراني الحضاري الثابت ، وللقرى من حيث التخطيط العمراني والموقع الجغرافي أنماط وأشكال عديدة ، فهناك القرى الساحلية وهناك القرى الجبلية وهناك قرى الوديان والسهول .

قال تعالى " وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حِطَّة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين "[1]، والقرية هنا هي بيت المقدس .

وقال تعالى " أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك ءاية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شئ قدير "[2]، والقرية التي مر عليها عزير في هذه الآية الكريمة هي بيت المقدس بعد تدمير وتخريب بوختنصر لها وقتل أهلها .

---

[1]. سورة البقرة : ٥٨ .
[2]. سورة البقرة : ٢٥٩ .

وقال تعالى " وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً "[1]، والقرية هي مكة المكرمة وكانت تحت سلطان المشركين .

وقال تعالى " وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون "[2]، كل قرية من القرى التي بعث الله إليها بالأنبياء والرسل لهدايتها .

وقال تعالى " ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون "[3]، والقرى هي القرى التي كذبت رسلها فأهلكها الله بظلمهم .

وقال تعالى " وكم من قرية أهلكناها فجآءها بأسنا بياتاً أو هم قآئلون "[4]، وقرية تدل على كثرة ما هلك من جنسها في أي وقت من الليل أو النهار لمخالفتهم أمر الله .

وقال تعالى " وما كان جواب قومه إلآ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون "[5]، والقرية في هذه الآية هي قرية قوم لوط .

وقال الله تعالى " ومآ أرسلنا في قريةٍ من نبي إلآ أخذنآ أهلها بالبأسآء والضرآء لعلهم يضَّرَّعون "[6]، وقرية تعني جميع القرى التي أرسل الله إليهم الأنبياء والرسل للبلاغ المبين .

وقال تعالى " ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ۞ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نآئمون ۞

---

[1]. سورة النساء : ٧٥ .
[2]. سورة الأنعام : ١٢٣ .
[3]. سورة الأنعام : ١٣١ .
[4]. سورة الأعراف : ٤ .
[5]. سورة الأعراف : ٨٢ .
[6]. سورة الأعراف : ٩٤ .

أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون "[1]، والقرى هي القرى التي كذبت رسل الله وأنبياءه .

وقال تعالى " تلك القرى نقص عليك من أنبآئها ولقد جآءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين "[2]، والمقصود بالقرى هنا هي مواطن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

وقال تعالى " وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطّة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئآتكم سنزيد المحسنين "[3]، والقرية هنا هي بيت المقدس .

وقال تعالى " فلولا كانت قرية ءامنت فنفعهآ إيمانهآ إلا قوم يونس لمآ ءامنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين "[4]، والقرية في هذه الآية هي نينوى في الموصل بأرض العراق .

وقال تعالى " وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون "[5]، القرى هي مواطن الأقوام التي هلكت .

وقال تعالى " وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون "[6]، والقرى في هذه الآية يقصد بها المدن إلا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى

---

[1]. سورة الأعراف : ٩٦-٩٧ .
[2]. سورة الأعراف : ١٠١ .
[3]. سورة الأعراف : ١٦١ .
[4]. سورة يونس : ٩٨ .
[5]. سورة هود : ١١٧ .
[6]. سورة يوسف : ١٠٩ .

الناس طباعاً وأخلاقاً وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقى طباعاً وألطف من أهل بواديهم وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي .

وقال تعالى " ومآ أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم "[1]، وقرية في هذه الآية تعني جميع القرى التي هلكت بذنوب أهلها .

وقال تعالى " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميراً "[2]. وقرية هنا تعني من القرى التي أهلكها الله بذنوب أهلها .

وقال تعالى " وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً "[3]، وقرية في هذه الآية تعني جميع القرى التي حق عليها العذاب .

وقال تعالى " وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً "[4]، والقرى في الآية هي القرى التي أهلكها الله بذنوب أهلها وظلمهم .

وقال تعالى " فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لتخذت عليه أجراً "[5]، والقرية هي قرية أيلة .

وقال تعالى " ما ءامنت قبلهم من قرية أهلكناهآ أفهم يؤمنون "[6]، وقرية تعني كل من هلك من القرى .

---

[1]. سورة الحجر : ٤.
[2]. سورة الإسراء : ١٦ .
[3]. سورة الإسراء : ٥٨ .
[4]. سورة الكهف : ٥٩ .
[5]. سورة الكهف : ٧٧ .
[6]. سورة الأنبياء : ٦ .

وقال تعالى " وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً ءاخرين "[1]، والقرية تعني القرى التي أهلكها الله بظلمها .

وقال تعالى " وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون "[2]، وقرية تجري على كل القرى الهالكة .

وقال تعالى " فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد "[3]، أي قرى كثيرة أهلكها الله بذنوبها .

وقال تعالى " وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير "[4]، أي وقرى كثيرة أمهلها الله على ظلمها ثم أخذها .

وقال تعالى " ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً "[5]، أي من القرى التي كانت قائمة وقت بعثة الرسول الكريم ولكنه بُعِث لجميع أهل الأرض .

وقال تعالى " وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون "[6]، أي كل القرى الهالكة بعث الله إليها بالرسل .

وقال تعالى " وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم

---

[1]. سورة الأنبياء : ١١ .
[2]. سورة الأنبياء : ٩٥ .
[3]. سورة الحج : ٤٥ .
[4]. سورة الحج : ٤٨ .
[5]. سورة الفرقان : ٥١ .
[6]. سورة الشعراء : ٢٠٨ .

obeikandl.com

ءاياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون "[1]، فالقرى التي بطرت كثيرة ، ولا يهلك الله قرية إلا بعد أن يقيم الحجة عليها بإرسال الرسل ، وقد أرسل سبحانه وتعالى رسوله الكريم إلى أم القرى وهي مكة المكرمة ليكون رسولاً للناس كافة .

وقال تعالى " ولما جاءت رسلنآ إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين "[2]، والقرية هي قرية قوم لوط بالأردن .

وقال تعالى " إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السمآء بما كانوا يفسقون "[3]، والقرية هي قرية قوم لوط بالأردن .

وقال تعالى " وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدَّرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً ءامنين "[4]، والقرى المبارك فيها عن بن عباس أنها بيت المقدس أما القرى الظاهرة فهي البينة الواضحة التي يعرفها المسافرون .

وقال تعالى " ومآ أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوهآ إنا بمآ أرسلتم به كافرون "[5]، أي عموم القرى التي أهلكها الله .

وقال تعالى " واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون "[6]، والقرية هي إنطاكية .

---

[1]. سورة القصص : ٥٨-٥٩ .
[2]. سورة العنكبوت : ٣١ .
[3]. سورة العنكبوت : ٣٤ .
[4]. سورة سبأ : ١٨ .
[5]. سورة سبأ : ٣٤ .
[6]. سورة يس : ١٣ .

وقال تعالى " وكذلك مآ أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوهآ إنـا وجـدنآ ءاباءنـا على أمة وإنا على ءاثـارهم مقتـدون "[1]، كـان هـذا هـو دأب كـل القـرى الـتي أهلكهـا الله سبحانه وتعالى فقد أفسدها مترفوها .

وقال تعالى " وقالوا لولا نُزّل هذا القرءان على رجل من القـريتين عظـيم "[2]. والقريتـان همـا مكة والطائف .

وقال تعالى " ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون "[3]، والخطـاب لأهل مكة ، وأهلك الله الأمم المكذبة للرسل مما حولها كعاد وكانوا بالأحقاف بحضر مـوت في اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بين مكة والشام ، وكذلك سبأ وهم أهـل الـيمن ، ومَـديَن وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضاً .

وقال تعالى " وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصـر لهـم "[4]، أي أهلك الله قرى كثيرة كانت أشد قوة من قريتك التي أخرجتك وهي مكة .

وقال تعالى " مآ أفآء الله على رسوله من أهل القرى فللـه وللرسـول ولـذي القربـى واليتـامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ومآ ءاتاكم الرسـول فخـذوه ومـا نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب "[5]. القرى هي القـرى والبلـدان الـتي تم فتحها على أيدي المسلمين .

---

[1]. سورة الزخرف : ٢٣ .
[2]. سورة الزخرف : ٣١ .
[3]. سورة الأحقاف : ٢٧ .
[4]. سورة محمد : ١٣ .
[5]. سورة الحشر : ٧ .

– المدينة :

المدينة تكوين اجتماعي أكبر من القرية وأكثر تنظيماً ورقياً وعمراناً ، وترتكز المدينة على عناصر المكان والمدنية والحضارة أكثر من ارتكانها إلى الروابط الاجتماعية ، وقد جاءت المدينة في القرآن الكريم مقترنة بالحضارة والمدنية وجمال العمارة وفنونها وعظمتها ، وفي كثير من الآيات القرآنية الكريمة كانت القرية والمدينة يأتيان كمرادفين يحمل كل منهما معنى الآخر .

قال تعالى " قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدآئن حاشرين "[1]، والمدائن هي جمع مدينة وهي كبريات مدن مملكة مصر .

وقال تعالى " قال فرعون ءامنتم به قبل أن ءاذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتُخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون "[2]، والمدينة هنا هي عاصمة ملك فرعون وأكبر مدن مملكته .

وقال تعالى " وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم "[3]، والمدينة هي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى " ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا

---

[1]. سورة الأعراف : ١١١ .
[2]. سورة الأعراف : ١٢٣ .
[3]. سورة التوبة : ١٠١ .

يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين "[1]، والمدينة هنا هي مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال تعالى " وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين "[2]، والمدينة هي مقر إدارة الحكم والدولة وهي عاصمة ملك مصر .

وقال تعالى " وجآء أهل المدينة يستبشرون "[3]، والمدينة هي مدينة قوم لوط ، وقد سبق إطلاق القرية عليها .

وقال تعالى " وكذلك بعثناهم ليتسآءلوا بينهم قال قآئل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوآ أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيهآ أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً "[4]، أي مدينتهم التي خرجوا منها والألف واللام للعهد .

وقال تعالى " وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغآ أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً "[5]، وفي هذه الآية دليل آخر على إطلاق القرية على المدينة لأنه قال أولاً " حتى إذا أتيآ أهل قرية " وقال ههنا " فكان لغلامين يتيمين في المدينة " .

---

[1]. سورة التوبة : ١٢٠ .
[2]. سورة يوسف : ٣٠ .
[3]. سورة الحجر : ٦٧ .
[4]. سورة الكهف : ١٩ .
[5]. سورة الكهف : ٨٢ .

وقال تعالى " وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون "[1]، والمدينة هي مدينة ثمود .

وقال تعالى " ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين "[2]، والمدينة هي عاصمة مملكة فرعون ومقر حكمه .

وقال تعالى " فأصبح في المدينة خآئفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين "[3]، والمدينة هي عاصمة مصر كما في الآية السابقة .

وقال تعالى " وجآء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين "[4]، والمدينة هي عاصمة مصر كما في الآية السابقة .

وقال تعالى " لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً "[5]، والمدينة في هذه الآية هي مدينة الرسول الكريم .

وقال تعالى " وجآء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين "[6]، والمدينة هي إنطاكية وقد ذكرها الحق تبارك وتعالى على أنها القرية حيث قال " واضرب لهم مثلاً

---

[1]. سورة النمل : ٤٨ .
[2]. سورة القصص : ١٥ .
[3]. سورة القصص : ١٨ .
[4]. سورة القصص : ٢٠ .
[5]. سورة الأحزاب : ٦٠ .
[6]. سورة يس : ٢٠ .

أصحاب القرية إذ جآءها المرسلون " وهذا دليل ثالث على أن القرية والمدينة يأتيان كمرادفين .

وقال تعالى " يقولون لئن رجعنآ إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون "[1]، والمدينة هي مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .

- البلد :

البلد تكوين اجتماعي دلالته مجازية أكثر منها موضوعية تحليلية ، فالبلد هو محل أو موضع معين قد يطلق على القرية وقد يطلق على المدينة وقد يطلق على دولة من الدول بعمومها وشموليتها وقد يطلق كذلك على الأرض التابعة لبلد من البلاد .

قال الله تعالى " وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً ءامناً وارزق أهله من الثمرات من ءامن منهم بالله واليوم الأخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير "[2]، والبلد هو مكة المكرمة .

وقال تعالى " لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد "[3]، الحديث من الحق تبارك وتعالى موجه إلى رسوله الكريم والبلاد هي الحواضر التي يقصدها الأثرياء والوجهاء والتجار من مشركي مكة للتجارة وما هم عليه من الترف والنعمة والغبطة والسرور .

وقال تعالى " وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به المآء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم

---

[1]. سورة المنافقون : ٨ .
[2]. سورة البقرة : ١٢٦ .
[3]. سورة آل عمران : ١٩٦ .

تذَّكرون * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبُثَ لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرّف الأيات لقوم يشكرون "[1]، والبلد في الآيتين الكريمتين للدلالة على الأرض منبت الزرع ومجلب الخير والنماء .

وقال تعالى " وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد ءامناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام "[2]، والبلد في هذه الآية الكريمة هي مكة المكرمة .

وقال تعالى " وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم "[3]، والبلد في هذه الآية للدلالة على الموضع أو المكان .

وقال تعالى " لنحي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنآ أنعاماً وأناسي كثيراً "[4]، كذلك جاءت بلدة في هذه الآية للدلالة على الأرض وهذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون فالماء يسقط على الأرض التي تستجيب له فتنبت الزرع والثمر ويكثر الخير والنماء فتزدهر الحضارة وتشيد المدن .

وقال تعالى " إنمآ أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرَّمها وله كل شئ وأمرت أن أكون من المسلمين "[5]، والبلدة هي مكة المكرمة .

وقال تعالى " لقد كان لسبإ في مسكنهم ءاية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور "[6]، والبلدة الطيبة هي سبأ .

---

[1]. سورة الأعراف : ٥٧-٥٨ .
[2]. سورة إبراهيم : ٣٥ .
[3]. سورة النحل : ٧ .
[4]. سورة الفرقان : ٤٩ .
[5]. سورة النمل : ٩١ .
[6]. سورة سبأ : ١٥ .

وقال تعالى " والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور "[1]، والبلد هو الموقع أو المكان الذي يشمل الأرض والبناء .

وقال تعالى " ما يجادل في ءايات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد "[2]، البلاد هي الحواضر المجاورة لمكة المكرمة .

وقال تعالى " والذي نزَّل من السمآء مآء بقَدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون "[3]، وكما سبق الإيضاح ارتبطت الأرض بالبلد لعلاقة السبب بالنتيجة .

وقال تعالى " رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج "[4]، سبق الإيضاح .

وقال تعالى " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص "[5]، أي ضربوا في البلاد المجاورة وساروا فيها يبتغون الأرزاق والتجارة .

وقال تعالى " التي لم يُخلق مثلها في البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد "[6]، والمقصود البلاد التي كانت بزمانهم .

وقال تعالى " لآ أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد "[7]، والبلد هي مكة المكرمة .

وقال تعالى " وهذا البلد الأمين "[8]، والبلد الأمين هي مكة المكرمة .

---

[1]. سورة فاطر : ٩ .
[2]. سورة غافر : ٤ .
[3]. سورة الزخرف : ١١ .
[4]. سورة ق : ١١ .
[5]. سورة ق : ٣٦ .
[6]. سورة الفجر : ٨-١١ .
[7]. سورة البلد : ١-٢ .
[8]. سورة التين : ٣ .

obeikandl.com

- القرن :

قال تعالى " ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنَّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السمآء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً ءاخرين ".[1]

وقال تعالى " ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمآ ظلموا وجآءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين " .[2]

وقال تعالى " فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا مآ أُترفوا فيه وكانوا مجرمين ".[3]

وقال تعالى " وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً "[4] .

وقال تعالى " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورءياً "[5] .

وقال تعالى " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً "[6] .

وقال تعالى " قال فما بال القرون الأولى "[7] .

---

[1]. سورة الأنعام : ٦ .
[2]. سورة يونس : ١٣ .
[3]. سورة هود : ١١٦ .
[4]. سورة الإسراء : ١٧ .
[5]. سورة مريم : ٧٤ .
[6]. سورة مريم : ٩٨ .
[7]. سورة طه : ٥١ .

وقال تعالى " أفلم يهدِ لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لأيات لأولي النهى "[1] .

وقال تعالى " ثم أنشأنا من بعدهم قرناً ءاخرين "[2] .

وقال تعالى " ثم أنشأنا من بعدهم قروناً ءاخرين "[3] .

وقال تعالى " وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً "[4] .

وقال تعالى " ولقد ءاتينا موسى الكتاب من بعد مآ أهلكنا القرون الأولى بصآئر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون "[5] .

وقال تعالى " ولكنآ أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم ءاياتنا ولكنا كنا مرسلين "[6] .

وقال تعالى " قال إنمآ أوتيته على علمٍ عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون "[7] .

وقال تعالى " أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لأيات أفلا يسمعون "[8] .

---

1. سورة طه : ١٢٨ .
2. سورة المؤمنون : ٣١ .
3. سورة المؤمنون : ٤٢ .
4. سورة الفرقان : ٣٨ .
5. سورة القصص : ٤٣ .
6. سورة القصص : ٤٥ .
7. سورة القصص : ٧٨ .
8. سورة السجدة : ٢٦ .

وقال تعالى " ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون "[1] .

وقال تعالى " كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص "[2] .

وقال تعالى " والذي قال لوالديه أُفٍ لكمآ أتعداننني أن أُخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك ءامن إن وعد الله حق فيقول ما هذآ إلآ أساطير الأولين "[3] .

وقال تعالى " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقَّبوا في البلاد هل من محيص "[4] .

يتضح من الآيات الكريمة التي وردت بها لفظة " القرن " أو " القرون " أو " قرن " ما يلي :

- إن القرن عبارة عن أمة شديدة القِدم .

- إن لفظة القرن كما وردت في آيات الذكر الحكيم جاءت مقترنة بالكفر والضلال ولم تستخدم لفظة القرن للدلالة على أمة مؤمنة .

- إن لفظة القرن قد اقترنت بإهلاك الله لهذه الأمم جزاءاً لهم على كفرهم وضلالهم .

---

[1] . سورة يس : ٣١ .
[2] . سورة ص : ٣ .
[3] . سورة الأحقاف : ١٧ .
[4] . سورة ق : ٣٦ .

– القوم :

هذه اللفظة جاءت هي الأخرى لتتشابه مع الألفاظ الأخرى الخاصة بأشكال وصور التجمعات البشرية التي مر بها المجتمع الإنساني ، وقد جاءت لفظة القوم بخصوصية ومعايير معينة ، ويمكن إيضاح ذلك من خلال الآتي :

○ القوم يرتبطون عادة بالتواجد في موقع جغرافي محدد قال تعالى " كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر "[1]، وقال تعالى " وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع كل كذَّب الرسل فحق وعيد "[2]، وقال تعالى " إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وءاتيناه من الكنوز مآ إن مفاتحه لتنوأُ بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين "[3]، وقال تعالى " وقوم إبراهيم وقوم لوط "[4]، وقال تعالى " فلولا كانت قرية ءامنت فنفعهآ إيمانهآ إلا قوم يونس لمآ ءامنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتَّعناهم إلى حين "[5]، وقال تعالى " ويا قوم لا يجرمنَّكم شقاقي أن يصيبكم مثل مآ أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد "[6]، وقال تعالى " ولقد فتنَّا قبلهم قوم فرعون وجآءهم رسول كريم "[7] .

لقد أوضحت الآيات الكريمة أن الأقوام الذين نُسِبوا إلى أنبيائهم قد تواجدوا في مناطق جغرافية محددة ، فقد تواجد قوم نوح في كل الأرض ، وتواجد قوم تُبَّع في اليمن ، أما قوم موسى فقد وجدوا في مصر ثم خرجوا منها مع موسى إلى فلسطين ، وقوم إبراهيم وجدوا في

---

[1] . سورة القمر : ٩ .
[2] . سورة ق : ١٤ .
[3] . سورة القصص : ٧٦ .
[4] . سورة الحج : ٤٣ .
[5] . سورة يونس : ٩٨ .
[6] . سورة هود : ٨٩ .
[7] . سورة الدخان : ١٧ .

الموصل من العراق ، وقوم لوط وجدوا في الأردن ، وقوم يونس وجدوا في الموصل من العراق ، وقوم هود وجدوا في حضرموت من اليمن ، وقوم صالح وجدوا بين الحجاز والشام ، وقوم فرعون سكنوا مصر .

○ القوم يربط بين أفراده رابطة الدين ، فالدين أهم الروابط التي تربط بين أفراد القوم سواء أكان دين الإيمان أو دين الكفر ، قال تعالى " أولم يعلموآ أن الله يبسط الرزق لمن يشآء ويقدر إن في ذلك لأيات لقوم يؤمنون "[1]، وقال تبارك وتعالى " ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جآء أمةً رسولها كذَّبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون "[2] .

○ لكل قوم كبراء يتبعونهم في الدين ، قال تعالى " ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار "[3]، وقال تعالى " يقدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود "[4]، وقال تعالى " فاستخفَّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين "[5] .

○ يرى أهل التاريخ وأصحاب الأخبار وسِيَر الأولين أن أفراد الأقوام التي ذُكرت في القرآن الكريم كانت تربطهم رابطة الدم والقربى[6] ، وقد كانوا ينحدرون من أصول وأنساب واحدة ويعتنقون ديانات واحدة ، ومن ثم تجتمع في لفظة القوم روابط المكان وأواصر الوجدان والانتماء إلي تلك الروابط .

---

[1] . سورة الزمر : ٥٢ .
[2] . سورة المؤمنون : ٤٤ .
[3] . سورة إبراهيم : ٢٨ .
[4] . سورة هود : ٩٨ .
[5] . سورة الزخرف : ٥٤ .
[6] النيسابوري ، قصص الأنبياء (القاهرة ، مكتبة الجمهورية) ص ٦٠ .

○ من استقراء الخصائص التي تميز لفظة " قوم " يتضح أن هذه اللفظة هي أساس مصطلح " قومية " المتداول في الوقت الراهن مع احتفاظ كل لفظة بخصوصيتها التي استمدتها من ظروفها الخاصة وحقبتها التاريخية .

– الأمة : [إحالة] :

كذلك فإن الأمة تعد أهم وأرقى أشكال ومراحل تطور المجتمع البشري كما ورد في القرآن الكريم ، ونظراً لأهمية هذا الشكل وجدوى هذه المرحلة ، فقد أفردنا جزئية مستقلة لدراسة الأمة ، ومن ثم نحيل إليها .

* **الأمة في القرآن والسنة :**

الإسلام بمصدريه الأساسيين القرآن والسنة لا يعرف معنى الدولة بمفهومها الذي سبق إيضاح عناصره ومقوماته ، ولكنه عرف مفهوماً آخر يؤدي نفس غرض مفهوم الدولة وهو مفهوم الأمة ، وإذا كان مفهوم الدولة هو إفراز لفكر بشري نشأ وتطور في أطر فكرية ومادية معينة ، فإن مفهوم الأمة قد نشأ وتطور هو الآخر في إطار القرآن والسنة ، متأثراً بما اتصف به كل منهما من الكمال والمثالية .

وقد جاءت لفظة " الأمة " في القرآن والسنة تحمل عدة معاني ، ومن المحبذ أن نقف على كل هذه المعاني ، وذلك من خلال ما يلي :

– الأمة بمعنى دين أو ملة أو طريقة :

لقد وردت لفظة " أمة " في كتاب الله بمعنى دين أو ملة أو طريقة ، قال تعالى " بل قالوا إناً وجدنآ ءابآءنا على أمة وإناً على ءاثارهم مهتدون * وكذلك مآ أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاَّ قال مترفوهآ إناً وجدنآ ءابآءنا على أمة وإناً على ءاثارهم مقتدون "[1] .

– الأمة بمعنى حين أو زمان أو عدد من الأيام :

كذلك وردت لفظة " أمة " في الذكر الحكيم بمعنى حين أو زمان أو عدد من الأيام ، قال تعالى " ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون "[2] ، وقال تعالى " وقال الذي نجا منهما وادَّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون "[3] .

– الأمة بمعنى جماعة من المخلوقات متجانسة ومتماثلة وتجمعها صفات خاصة :

ثم جاءت لفظة " أمة " في القرآن المجيد بمعنى جماعة من مخلوقات الله متجانسة ومتماثلة ، وتجمعها صفات خاصة ، قال تعالى " وما من دآبة في الأرض ولا طآئر يطير بجناحيه إلآ أمم أمثالكم ما فرطّنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربّهم يحشرون "[4] ، فالحيوان والطائر وكافة مخلوقات الله التي تجمعها صفات موحدة ومتجانسة ، تمثل أمماً مثل الأمم التي يكونها بنو البشر .

---

[1] . سورة الزخرف : ٢٢ و ٢٣ .
[2] . سورة هود : ٨ .
[3] . سورة يوسف : ٤٥ .
[4] . سورة الأنعام : ٣٨ .

وقال تعالى " قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فئاتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون "[1]، فالجن كمخلوقات ذات مواصفات خاصة ينتظمون في أمم مثل بني البشر ، ويتلقون رسالات الله ورسل الله وأنبياءه وهم محاسبون على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقال الحق تبارك وتعالى " وقيضنا لهم قرنآء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين "[2].

وقال رب العزة " قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسُّهم منا عذاب أليم "[3]، فقد حمل رسول الله نوح معه في السفينة من كل مخلوقات الله زوجين ذكراً وأنثى ، وكل صنف من تلك الأصناف يشكل أمة ، تجمعه صفات خاصة ، وتنتظمه علاقات الهوية المشتركة .

– الأمة بمعنى جماعة أو طائفة من الناس :

وجاءت لفظة " أمة " في القرآن الكريم بمعنى جماعة من الناس أو طائفة أو جزء من الأمة التي تجمعها صفات مشتركة ، قال تعالى " أم كنتم شهدآء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله ءابائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ۞ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسئلون عما

---

[1] . سورة الأعراف : ٣٨ .
[2] . سورة فصلت : ٢٥ .
[3] . سورة هود : ٤٨ .

كانوا يعملون "[1]، والأمة يقصد بها في هذه الآية الكريمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنوه وهم بنو إسرائيل وهم جماعة أو طائفة من مجموعة الأمم التي وجدوا فيها .

وقال تعالى " أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل ءأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون * تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسئلون عما كانوا يعملون "[2].

وقال تعالى " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون "[3]، أي ولتقم منكم يا أمة محمد طائفة للدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأنتم بذلك الفائزون .

ويقول تعالى " ليسوا سوآء من أهل الكتاب أمة قآئمة يتلون ءايات الله ءانآء الليل وهم يسجدون "[4]، والحديث في هذه الآية عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنهم ليسوا جميعاً متساوين في الكفر والضلال ، فمنهم طائفة أو جماعة مستقيمة ثابتة على الحق ويعبدون الله حق عبادته ، وهم الذين دخلوا في الإسلام .

ويقول عزَّ وجلَّ " ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ومآ أُنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم سآء ما يعملون "[5]، كذلك نزلت هذه الآية في أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق

---

[1] . سورة البقرة : ١٣٣ و ١٣٤ .
[2] . سورة البقرة : ١٤٠ و ١٤١ .
[3] . سورة آل عمران : ١٠٤ .
[4] . سورة آل عمران : ١١٣ .
[5] . سورة المائدة : ٦٦ .

والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه ، ولو فعلوا ذلك لرزقهم الله رزقاً واسعاً ، ولكنهم حادوا عن طريق الله ، ولم يلتزم منهم بطريق الرشد والهداية إلاّ طائفة معتدلة سارعت إلى الإسلام .

ويقول الحق تبارك وتعالى " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون "[1]، أي ومن أتباع موسى من اليهود الذين نزل فيهم التوراة جماعة أو طائفة أو فرقة هداها الله إلى الحق وآمنوا بما أُنزل على موسى عليه السلام ، فهم يهدون غيرهم ويرشدونهم إلى الطريق المستقيم ويحكمون في الخلافات والخصومات بكتاب الله المنزل على نبيهم .

ويقول الله تعالى " وقطَّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينآ إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم وظلَّلنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوآ أنفسهم يظلمون "[2]، أي أن الله قد مزَّق وفرَّق بني إسرائيل إلى اثنتي عشر جماعة أو فريقاً وكل جماعة أو فريق كالقبيلة عند العرب .

ويقول تعالى " وإذا قالت أمة منهم لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون "[3]، أي قالت جماعة أو طائفة من أهل القرية التي كانت حاضرة البحر ، والتي قيل أنها (أيَلة) لِمَ تنهون هؤلاء الذين يتجاوزون حدود الله بالصيد في يوم السبت ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم ، فقال الناهون إنما نعظهم لنُعذَر عند الله بقيامنا بواجب النصح لعلهم أن يتقوا الله فينيبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إياه وتعديهم الاعتداء في السبت .

---

[1] . سورة الأعراف : ١٥٩ .
[2] . سورة الأعراف : ١٦٠ .
[3] . سورة الأعراف : ١٦٤ .

وقال تعالى " وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون "[1]. أي فرق الله اليهود في البلاد طوائف وفرقاً ففي كل بلدة فرقة منهم ، وليس لهم إقليم يملكونه حتى لا تكون لهم شوكة[2] ، ولم يؤمن منهم إلا قلة قليلة ، والباقون وهم الكثرة كفروا وفسقوا ، فاختبرهم الله بالنعم والنقم والشدة والرخاء لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي .

ويقول رب العالمين " ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون "[3]. الخطاب في هذه الآية موجه من الله سبحانه وتعالى إلى مشركي قريش الذين ينقضون العهد ولا يوفون بالوعد ، وشبههم بحمقاء مكة التي كانت تغزل غزلاً ثم تنقضه ، ويتخذون أيمانهم خديعة ومكراً يخدعون بها الناس لأجل أن تكون جماعة أو طائفة من الناس أكثر عدداً وأوفر مالاً من غيرها .

وقال تعالى " ولما ورد مآء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير "[4]، تحكي الآية الكريمة قصة خروج نبي الله موسى عليه السلام من مصر خائفاً على نفسه يترقب وينتظر الطلب أن يدركه ويأخذه ، وقد توجه إلى أرض مدين بلدة نبي الله شعيب عليه السلام ، ولما وصل إلى مدين بلدة شعيب وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة جمعاً كثيفاً من الناس يسقون مواشيهم ، ووجد سوى جماعة الرعاة امرأتين تكفّان غنمهما عن الماء ، فسألهما ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء ، ولِمَ لا تسقيان مع السقاة ، قالت المرأتان

---

[1] . سورة الأعراف : ١٦٨ .
[2] محمد علي الصابوني .، صفوة التفاسير ، المجلد الأول .. ، ص ٤٧٩ .
[3] . سورة النحل : ٩٢ .
[4] . سورة القصص : ٢٣ .

من عادتنا أن نتأنى حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء ، حيث لا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء ، ولا نريد مخالطة الرجال ، وأبونا رجل مُسِن لا يستطيع لضعفه أن يباشر سقاية الغنم ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا .

– الأمة بمعنى الأقوام والأمم التي سبقت ظهور الإسلام ووجود الأمة الإسلامية :

كذلك خاطب الحق تبارك وتعالى الأقوام والقرون والأمم التي سبقت ظهور الإسلام ووجود الأمة الإسلامية بلفظة " أمة " .

قال تعالى " كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جآءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين ءامنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشآء إلى صراط مستقيم "[1]، أي كان الناس أمة واحدة مجتمعه على الكفر والضلال .

وقال تعالى " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلآء شهيداً "[2]، أي كيف يكون حال الكفار والفجار حين نأتي من كل أمة بنبيها يشهد عليها ، ونأتي بك يا محمد على العصاة من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان .

ويقول تبارك وتعالى " وأنزلنآ إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بمآ أنزل الله ولا تتبع أهوآءهم عما جآءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شآء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في مآ ءاتاكم فاستبقوا الخيرات

---

[1]. سورة البقرة ٢١٣ .
[2]. سورة النساء : ٤١ .

إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون "[1]، أي ولو أراد الله لَجَمَع الناس كلهم في أمة واحدة على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شئ منها الآخر .

ويقول جلَّ وعلا " ولقد أرسلنآ إلى أمم من قبل فأخذناهم بالبأسآء والضرآء لعلهم يتضرعون "[2]، أي أرسلنا الرسل والأنبياء إلى الأمم والقرون التي جاءت من قبلك يا محمد فكذبوا رسلهم وأنبياءهم ، فعاقبناهم بالفقر والبؤس والأسقام والأوجاع ، لكي يتضرعوا إلى الله بالتذلل والإنابة .

ويقول تعالى " ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زيَّنا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون "[3]، أي زينا لكل أمة عملهم ، لأهل الطاعة الطاعة ، ولأهل المعصية المعصية .

ويقول الله تعالى " ولكل أمة أجل فإذا جآء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون "[4]، أي لكل أمة كذبت رسلها مدة مضروبة ومحددة لهلاكها ، فإذا جاء وقت هلاكها المقدر لها لا يتأخر عنها برهة من الزمن ولا يتقدم .

ويقول الحق تبارك وتعالى " وما كان الناس إلآ أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون "[5]، أي وما كان الناس إلاَّ على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح عليه السلام ، فاختلفوا في دينهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، فبعث الله

---

[1]. سورة المائدة : ٤٨ .
[2]. سورة الأنعام : ٤٢ .
[3]. سورة الأنعام : ١٠٨ .
[4]. سورة الأعراف : ٣٤ .
[5]. سورة يونس : ١٩ .

الرسل مبشرين ومنذرين ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة لعجّل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين .

ويقول عزَّ وجلَّ " ولكل أمةٍ رسول فإذا جآء رسولهم قُضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون "[1] ، أي ولكل أمة من الأمم رسول أرسل لهدايتهم ، ويوم القيامة تُعرض كل أمة على الله بحضرة رسولها وكتاب أعمالها من خير وشر شاهد عليها وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً .[2]

ويقول تعالى " قل لآ أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلاَّ ما شآء الله لكل أمة أجل إذا جآء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون "[3]، أي لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضراً ولا أجلب إليها نفعاً ، وليس ذلك لي ولا لغيري ، إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أملك ما استعجلتم به من العذاب ، لكل أمة وقت معلوم لهلاكها وعذابها ، فإذا جاء أجل هلاكها فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون ، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه .[4]

ويقول الله تعالى " ولو شآء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين "[5]، أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم أمة واحدة مؤمنين مهتدين على دين الإسلام ، ولكنه لم يفعل ذلك للحكمة ، ولا يزل الناس مختلفين على أديان شتى وملل متعددة ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ، إلاّ أناساً هداهم الله من فضله وهم أهل الحق .

---

[1]. سورة يونس : ٤٧ .
[2]. تفسير بن كثير ، المجلد الثاني ، ص ٣٨١ .
[3]. سورة يونس : ٤٩ .
[4]. الصابوني ، صفوة التفاسير ، مرجع سابق ، المجلد الأول ، ص ٥٨٧ .
[5]. سورة هود : ١١٨ .

ويقول تعالى " ما تسبق من أمة أجلها وما يستئخرون "[1]، أي لا يتقدم هلاك أمة قبل مجيء أوانه ولا يتأخر عنهم .

ويقول رب العالمين " ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين "[2]، أي أرسلنا الرسل إلى جميع الأمم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم لهدايتهم .

ويقول تعالى " تالله لقد أرسلنآ إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم "[3]، أي والله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم وأممهم فحسَّن الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل وردّوا عليهم ما جاءوهم به من البينات .

ويقول الله تعالى " ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يُستعتبون "[4]، أي ويوم القيامة نحشر الخلائق للحساب ونبعث في كل أمة نبيها يشهد عليها بالإيمان أو الكفر .

ويقول عز وجل " ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين "[5] أي واذكر للناس ذلك اليوم وهوله حين نبعث في كل أمة نبيها ليشهد عليها ، وجئنا بك يا محمد شهيداً على أمتك .

---

[1]. سورة الحجر : ٥ .
[2]. سورة النحل : ٣٦ .
[3]. سورة النحل : ٦٣ .
[4]. سورة النحل : ٨٤ .
[5]. سورة النحل : ٨٩ .

ويقول تعالى " ولو شآء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشآء ويهدي من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون "[1]، أي لو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد وجعلهم أهل ملة واحدة لا يختلفون ولا يفترقون .

ويقول الله تعالى " ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين "[2]، أي شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله .

ويقول تعالى " لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم "[3]، أي لكل نبي من الأنبياء وأمة من الأمم السابقة وضعنا لهم شريعة ومتعبداً .

ويقول الله تبارك وتعالى " ما تسبق من أمة أجلها وما يستئخرون * ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جآء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون "[4]، أي ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة عن الوقت الذي عين لهلاكهم ولا تتأخر عنه ثم بعثنا الرسل متتالين واحداً بعد واحد .

ويقول تعالى " ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذبُ بئاياتنا فهم يوزعون "[5]، أي واذكر يوم نجمع للحساب والعقاب من كل أمة من الأمم جماعة وزمرة من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا ، فهم يجمعون ثم يساقون بعنف .

---

[1] . سورة النحل : ٩٣ .
[2] . سورة الحج : ٣٤ .
[3] . سورة الحج : ٦٧ .
[4] . سورة المؤمنون : ٤٣ و ٤٤ .
[5] . سورة النمل : ٨٣ .

ويقول تعالى " ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون "[1]، أي أخرجنا من كل أمة شهيداً منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهو نبيهم ، وقال لهم الله هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر ، وعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله ، وأنه لا إله إلا هو ، وغاب عنهم ما كانوا يتخرصونه في الدنيا من الشركاء والأنداد .

وقال الله تعالى " وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين "[2]، أي وإن تكذبوني فلن تضروني بتكذيبكم وإنما تضرون أنفسكم ، فقد سبق قبلكم أمم كذبوا رسلهم فحل بهم عذاب الله ، وسيحل بكم ما حل بهم ، وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله وليس عليه هداية الناس .

وقال تعالى " إنّآ أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير "[3] ، أي بعثناك بالهدى ودين الحق بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، وما من أمة من الأمم في العصور والأزمنة الخالية إلا وقد جاءها رسول .

وقال تعالى " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جآءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جآءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً "[4]، أي حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها لئن جاءهم رسول منذر ليكونن أهدى من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من أهل الكتاب ، فلما جاءهم محمد رسول الله ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الحق وهرباً منه .

---

[1] . سورة القصص : ٧٥ .
[2] . سورة العنكبوت : ١٨ .
[3] . سورة فاطر : ٢٤ .
[4] . سورة فاطر : ٤٢ .

وقال الحق تبارك وتعالى " كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب "[1]، أي كذب قبل كفار مكة أقوام كثيرون منهم قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله كقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم ، وهمّت كل أمة من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به ، وجادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق الواضح الجلي ، فأهلكهم الله إهلاكاً مريعاً فكان عقاباً شديداً فظيعاً .

وقال تعالى " ولو شآء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخِل من يشآء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير "[2]، أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم أمة واحدة مهتدين ولكنه تعالى حكيم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه ، فيدخله بذلك في جنته ، ومن علم منه اختيار الضلال يضله ، فيدخله بذلك السعير ، والكافرون ليس لهم ولي يتولاهم يوم القيامة ولا نصير ينصرهم من عذاب الله .

ويقول تعالى " ولولآ أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون "[3]، أي ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق ويصيروا أمة واحدة في الكفر ، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش ، سقوفها من الفضة الخالصة وجعلنا لها مصاعد وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون [4] .

---

[1] . سورة غافر : ٥ .
[2] . سورة الشورى : ٨ .
[3] . سورة الزخرف : ٣٣ .
[4] . الصابوني ، صفوة التفاسير .. ، المجلد الثالث ، ص ١٥٧ .

ويقول الله تبارك وتعالى " وترى كل أمة جاثية كل أمة تُدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون "[1]، أي وترى كل أمة من الأمم التي سبقت ظهور الإسلام ، والتي زامنت ظهور الإسلام ، والتي أعقبت ظهوره ، جالسة على الركب من شدة الهول والفزع ، ثم تُدعى كل أمة من تلك الأمم إلى صحائف أعمالها ، فينالون جزاء أعمالهم .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فنزلنا منزلاً ، فمنا من يصلح خباءه [2]، ومنا من ينتضل [3]، ومنا من هو في جشره [4]، إذ نادي منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله فقال : " إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجئ الفتن يُرقّق [5] بعضها بعضاً وتجئ الفتنة فيقول المؤمن : هذه مُهلكتي ثم تنكشف وتجئ الفتنة فيقول المؤمن : هذه هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يُؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر " ، فالرسول الكريم قد جاء بلفظة " أمة " الأولى لتعني الأمم غير الإسلامية ، وبلفظة " أمة " الثانية لتعني الأمة الإسلامية .

---

[1] . سورة الجاثية : ٢٨ .
[2] . خباؤه : أي خيمته .
[3] . ينتضل : أي يسابق بالرمي بالنبل .
[4] . الجشر بكسر الجيم وفتح الشين يعني الدواب التي ترعي وتبيت في مكانها .
[5] . يرقق : يشبه .

- الأمة بمعنى الأمة الإسلامية :

لقد وردت الأمة والمقصود بها الأمة الإسلامية في القرآن الكريم في أكثر من موضع والمقصود بالأمة الإسلامية تحديداً الأمة التي بُعث فيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والتي نزل عليها القرآن الكريم .

يقول تعالى " ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنآ أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم "[1]، أي اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك ، واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك ، والمقصود هنا الأمة الإسلامية ، وعلّمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا .

ويقول عز وجل " وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهدآء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليهآ إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم "[2]، أي وكما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا أمة محمد أمة اعتدال وهداية لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلّغتهم ، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم .

وقال الحق تبارك وتعالى " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو ءامن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون "[3]، أي أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس تدعون إلى الخير وتأمرون به .

---

[1]. سورة البقرة : ١٢٨ .
[2]. سورة البقرة : ١٤٣ .
[3]. سورة آل عمران : ١١٠ .

وقال تعالى " وممن خلقنآ أمة يهدون بـالحق وبـه يعـدلون "[1]، أي ومـن بعـض الأمـم الـتي خلقنا أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً يدعون الناس إلى الحق وبـه يعمـلون ويقـضون ، والمقصود بهذه الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .[2]

وقال تعالى " كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلهآ أمم لتتلوا عليهم الـذي أوحينـآ إليـك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لآ إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب "[3]، أي كما أرسلنا الأنبياء من قبلك كذلك أرسلناك يا محمد في أمة قد مـضت قبلـها أمـم كـثيرة ، فهـي آخـر الأمم وأنت خاتم الأنبياء وهم عرب مكة الذين بعث فيهم الرسـول الكـريم ، وأمـة الإسـلام بعد إسلامهم ودخولهم في دين الله أفواجاً .

وقال تعالى " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون "[4]، أي دينكم وملتكم التي يجب أن تكونوا عليها أيها الناس ملة واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام .

وقال تعالى " وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون "[5]، أي ديـنكم يـا معـشر الأنبيـاء دين واحد وملتكم ملة واحدة وهـي ديـن الإسـلام ، وقـد جـاءت لفظـة " أمـة " في الآيـتين الكريمتين الأخيرتين بمعنى الـدين الإسـلامي ، وثمـة حكمـة بالغـة في التعـبير عـن الـدين الإسلامي بالأمة ، لأننا سنلاحظ فيما بعد أن الدين هو أهم عنصر من عناصر الربط والترابـط بين أفراد الأمة ، سواء أكان هذا الدين هو الإسلام أو غيره .

---

[1]. سورة الأعراف : ١٨١ .
[2]. تفسير بن كثير ، المجلد الثاني ، ص ٢٤٨ .
[3]. سورة الرعد : ٣٠ .
[4]. سورة الأنبياء : ٩٢ .
[5]. سورة المؤمنون : ٥٢ .

وعن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة " .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا :" اللهم من وَلِي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فشُقَّ عليه ، ومن وَلِي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به " .

* نشأة الدولة في القرآن الكريم :

حاول الفكر البشري جاهداً تعقب ظاهرة الدولة باحثاً منقباً عن كافة جوانبها ، كيف نشأت ؟ كيف تطورت ؟ ما هي عناصرها ومرتكزاتها ؟ ما هي أشكالها ؟ هل هذه الظاهرة التي هي الدولة تندثر وتتحلل ؟ وعندئذ مَن يخلف الدولة ويرثها ؟ كل هذه التساؤلات وسواها حاول الفكر البشري البحث فيها وتعقب إجاباتها .

وننصرف في هذه الجزئية إلى البحث مرة أخرى في ظاهرة الدولة ولكن كما وردت في القرآن الكريم ، وهذا اللجوء إلى كتاب الله في بحث هذه الجزئية له ما يبرره ، فالحق تبارك وتعالى خلق الخليقة ، ويعلم كيف تطور الخلق ، وكيف قامت الممالك والقرون والأمم ، وكيف بادت واندثرت ، وحكي لنا القرآن العظيم تلك التطورات لنعلم التاريخ وسير الأولين ولنأخذ منها العظة والعبرة ، وإذا كان الفكر البشري يجتهد فيصيب مرة ويخطئ مرات ، ويعتمد على التخمين والتوقع ، واستقراء ما توافر من الوقائع والأحداث للقياس عليها ، فإن القرآن الكريم حكى لنا وقائع التاريخ من لدن خالق الكون والعالِم بأسراره والحكيم الخبير بأحواله والمصرّف لشئونه وأغياره .

ويجدر بنا أن نحدد بداية نقطة الانطلاق التي ننطلق منها للبحث في كيفية نشأة الدولة كما وردت في الذكر الحكيم ، وهذه النقطة هي الإجابة على التساؤل التالي : هل ما ورد في القرآن الكريم حول الأمم والقرون والأقوام السابقة والتي رصدنا صورها وأشكالها في البند السابق يعد تعاملاً مع ظاهرة الدولة ؟ أو بعبارة أكثر دقة هل الصور والأشكال التي ظهر عليها وتطور إليها المجتمع البشري وأوردها القرآن الكريم هي صور وأشكال الدولة ؟ .

ينبغي العلم أن شكل الدولة أو مسماها ليس هو المهم ، ولكن الفيصل في الأمر هو عناصر الدولة ومقوماتها ، فكل كيان بشري أو تكوين إنساني يرتكز على عناصر محددة يكون هو الدولة ، ولا يهم في ذلك أن تكون الدولة تجسدت في شكل قرية أو تمثلت في هيئة مدينة أو تزيَّت بزي مملكة ، ففي تلك العصور الغابرة كانت الدولة تأخذ أشكالاً بسيطة ، فالقرية قد تشكل دولة والمدينة تمثل دولة والمملكة الممتدة المساحة المترامية الأطراف هي الأخرى صورة من صور الدولة ، ولكن الأمر اليقيني أن القرية مثلها مثل المملكة تستجمع عناصر الدولة ، فكلا التكوينين الاجتماعيين القرية والمدينة يقوم على عناصر تتمثل في : التجمع البشري الذي عُرف فيما بعد بالسكان أو الشعب أو المواطنين ، والأرض أو الموقع الجغرافي الذي يقيم عليه التجمع البشري والذي عرف فيما بعد بالإقليم ، والمسئولون عن تصريف شئون هذا التجمع والدفاع عنه ، وهم كبراء القوم أو ما عرف فيما بعد بالحكومة .

نخلص مما تقدم إلى أن الكيانات أو التكوينات البشرية التي أوردها القرآن الكريم هي عبارة عن دول ولكن بمقاييس الأزمنة والفترات التاريخية التي وُجدت فيها ، ومن هذه الخلاصة نطرح السؤال التالي : كيف نشأت الدولة بشكلها وصورتها التي كانت عليها في تلك الأزمنة ؟ .

– توزيع القوة في التجمع البشري :

لقد كان توزيع القوة في التجمعات البشرية التي أوردها القرآن الكريم ، وهي القرية والمدينة والقوم والأمة يتم على النحو التالي :

○ القوة المادية :

وتعني القوة المادية الاستحواذ على أدوات وسائل القهر المادي في حالة الصراع العضوي ، وتتجسد أدوات ووسائل القهر المادي أو بالأحرى أشكال القوة المادية ، في الآتي :

□ قوة البدن : أو القوة العضلية ، وكانت هذه الصورة من أهم صور وأشكال القوة المادية التي كان لها شأن في التجمعات البشرية القديمة ، قال تعالى " وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم " .[1]

وقال تعالى " أوَعجبتم أن جآءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفآء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا ءالآء الله لعلكم تفلحون "[2]، والبسطة في الخلق تعني القوة العضلية وعِظَم الأجسام والطول .

---

[1]. سورة البقرة : ٢٤٧ .
[2]. سورة الأعراف : ٦٩ .

□ كثرة العدد : كذلك كانت كثرة العدد أحد أشكال القوة المادية ، وكانت القبائل كثيرة العدد تهابها القبائل قليلة العدد ، قال تعالى " ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً "[1]، والنفير يقصد منه القوة المترتبة على الكثرة العددية .

□ قوة العدة والعتاد الحربي : وتعد كذلك من أهم مظاهر وأشكال القوة المادية ولعلها لا تزال كذلك ، قال تعالى " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وءاخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون "[2]، فالقوة ورباط الخيل يقصد بهما قوة الجيوش وتسليحها .

وقال تعالى " فإذا جآء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنآ أولي بأسٍ شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً "[3]، والبأس هو القوة والبطش في الحروب .

وقال تعالى " قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين "[4]، وأولوا بأس شديد تعني أصحاب نجدة وبلاء في الحروب .

وقال تعالى " قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً "[5]، وأولوا البأس هم أصحاب الشدة والقوة في الحرب .

□ قوة المال والثروة : كذلك كانت قوة المال والثروة في التجمعات البشرية القديمة شكلاً من أشكال القوة المادية حيث أن المال يحقق أهدافاً عديدة ، ويمكن أن يجلب جميع مظاهر

---

[1]. سورة الإسراء : ٦ .
[2]. سورة الأنفال : ٦٠ .
[3]. سورة الإسراء : ٥ .
[4]. سورة النمل : ٣٣ .
[5]. سورة الفتح : ١٦ .

وأشكال القوة الأخرى — التي ذكرناها سلفاً — قال تعالى " أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون " .[1]

وقال تعالى " إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وءاتيناه من الكنوز مآ إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين " .[2]

وقال تعالى " فلا تعجبكم أموالهم ولآ أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون " .[3]

وقال تعالى " كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والأخرة وأولئك هم الخاسرون " .[4]

وقال تعالى " وقال موسى ربنآ إنك ءاتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم " .[5]

وقال تعالى " وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين " .[6]

---

[1]. سورة المؤمنون : ٥٥-٥٦ .
[2]. سورة القصص : ٧٦ .
[3]. سورة التوبة : ٥٥ .
[4]. سورة التوبة : ٦٩ .
[5]. سورة يونس : ٨٨ .
[6]. سورة سبأ : ٣٥ .

○ القوة غير المادية :

القوة غير المادية تعني الاستحواذ على وسائل القهر والسيطرة غير المادية ، وتعرف القوة غير المادية بالنفوذ وتتجسد أشكال القوة غير المادية في الآتي :

□ العلم : لا يقصد بالعلم دائماً المعني الأخلاقي الفاضل ولكن يعني العلم كذلك الإلمام والاطلاع على حقائق وأمور لا يعرفها الآخرون ، ويعتبر العلم أداة من أدوات وأشكال القوة غير المادية ، إذا أضاف لأصحابه ومالكيه ميزة وتفرد تميزهم على الآخرين وتجعلهم يخضعون لهم ، ومثال ذلك السحر والكهانة والتنجيم والشعوذة ، قال تعالى " قال ألقوا فلمآ ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجآءو بسحرٍ عظيم "[1]، أي أفزعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً ، حيث جاءوا بسحر عظيم يهابه من يراه ، وفي هذا دلالة على ما كان للسحر من وقع وتأثير على الناس في المجتمعات القديمة .

□ استغلال الوازع الديني : منذ قديم الأزل والدين أو القوة الغيبية تمثل عنصراً ذا شأن في حياة الناس ، حيث يميل الناس بطبعهم وسجيتهم إلى التفكير في القوة القاهرة في هذا الكون وهي قوة الإله الخالق ، وقد استغل الكثيرون هذه الميول لدى الناس واستثمروا جهلهم ورغبتهم الجامحة في التعرف على الله ، وقد جاء هذا الاستغلال في صورتين :

• الصورة الأولى : مِن الناس مَن أخبر الآخرين بأنهم يعرفون الطريق إلى الله الخالق ولكن من خلال وسطاء جسَّموهم في شكل أصنام ، ووظفوا ذلك لإعلاء مكانتهم وشأنهم في

---

[1]. سورة الأعراف : ١١٦ .

مجتمعاتهم ، قال تعالى " واتخذوا من دون الله ءالهةً ليكونوا لهم عزاً "[1]، أي ليكونوا لهم شفعاء وأنصار يتعززون بهم ويترفعون بهم على الناس رغبة في المكانة والمنزلة .

وقال تعالى " ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياآء ما نعبدهم إلاَّ ليقربونآ إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي مَن هو كاذب كفَّار "[2]، أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا ، ومن ثم فعبادة هؤلاء القوم للأصنام إنما لتقربهم من الله زلفى ويشفعوا لهم وترقى منزلتهم .

• الصورة الثانية : هناك من المكذبين المسرفين العالين الذين ادَّعوا الألوهية لتكون لهم السيطرة والهيمنة على الناس جميعاً في مجتمعاتهم ، ومن ذلك النمرود طاغية إبراهيم ، قال تعالى " ألم تر إلى الذي حآج إبراهيم في ربه أن ءاتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين "[3]، وكذلك فرعون طاغية موسى ، قال تعالى " فقال أنا ربكم الأعلى " .[4]

– الصراع من أجل القوة :

بعد أن حددنا أشكال القوة يمكن القول بأن ثمة أناساً داخل التجمع البشري سيبذلون جهدهم من أجل الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من تلك القوة بجميع صورها وأشكالها

---

[1]. سورة مريم : ٨١ .
[2]. سورة الزمر : ٣ .
[3]. سورة البقرة : ٢٥٨ .
[4]. سورة النازعات : ٢٤ .

فهي التي ستكفل لهم السيطرة والهيمنة على الآخرين . إزاء ما تقدم كانت الصراعات تدور داخل التجمعات البشرية ، وهناك شكلان للصراع داخل تلك التجمعات :

○ صراع من أجل الاستحواذ على القوة بوجه من الوجوه ، فكل فريق داخل التجمع البشري يهدف إلى الحصول على القوة لكي يتحقق له السيادة والسيطرة .

○ صراع من أجل السيطرة وقهر الآخرين ، وبعد أن تتحقق الغلبة لفريق دون الآخرين في الحصول على القوة ، يصبو الفريق الغالب إلى السيطرة على التجمع البشري مستغلاً ما قُدّر له الحصول عليه من القوة ، ويستمر ذلك الصراع إلى أن تستقر الأمور وتنتهي الأوضاع بسيطرة الفريق الغالب على مقدرات التجمع البشري .

– سيطرة مَن يملك القوة على مقدرات المجتمع :

مَن يملك القوة في المجتمع القديم يمكنه السيطرة على الجميع ، ويتسنى له التحكم في أمور المجتمع ، وقد كان ذلك دأب المجتمعات البشرية القديمة ، وقال تعالى في قوم عاد " أتبنون بكل ريعٍ ءاية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون "[1] ، وقال تعالى في قوم ثمود " في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين " .[2]

[1]. سورة الشعراء : ١٢٨-١٣٤ .
[2]. سورة الشعراء : ١٤٧-١٤٩ .

- مَن يملك القوة يتولى إنشاء الدولة :

الطرف الذي يقدِّر له تملك القوة والسيطرة على مجريات الأمور في المجتمع يتولى بالتالي تصريف تلك الأمور بصياغة القوانين والأنظمة التي تكفل له القيام بذلك ، وإلزام أفراد المجتمع باحترام تلك القوانين والانصياع لها ، والدفاع عن المجتمع والحفاظ عليه ، وهكذا تقوم الدولة وتنتصب أركانها ، ويضع أصحاب القوة القانون ويقيموا العدالة .

ومعلوم أن القانون الذي ينظم حياة الناس ويضبط سلوكهم وفق رغبات ومشيئات أصحاب القوة والسيطرة في المجتمع ، ذلك القانون هو صنيعة المتحكمين وأداتهم لتحقيق النظام الذي يريدونه ، كذلك فالدين الذي يتعين على الجميع اعتناقه ، ينبغي أن يكون دين المتنفذين أصحاب السيطرة ، فالكبراء وأصحاب الشأن والسادة هم مبتدعو الدين سواء من قريحتهم أو إرثاً عن آبائهم ، أما عامة المجتمع فهم تبع لهم .

قال تعالى " وإذا قيل لهم اتبعوا مآ أنزل الله قالوا بل نتبع مآ ألفينا عليه ءابائنا أولو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون "[1]، فالدين موروث عن الآباء .

وقال تعالى " وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون "[2]، أي سلطنا شرارهم وعظماءهم أن يدعون إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال ، ولكن لا يعود وبال فكرهم وإضلالهم إلاّ على أنفسهم .

---

[1]. سورة البقرة : ١٧٠ .
[2]. سورة الأنعام : ١٢٣ .

وقال تعالى " وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفآء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سوآء علينآ أجزعنآ أم صبرنا ما لنا من محيص " .[1]

وقال تعالى " إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ۞ قالوا وجدنآ ءابآءنا لها عابدين " .[2]

وقال تعالى " وقالوا ربنآ إنآ أطعنا سادتنا وكبرآءنا فأضلونا السبيلاً " .[3]

وقال تعالى " قال الذين استكبروا للذين استُضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جآءكم بل كنتم مجرمين ۞ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننآ أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لَّما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون " .[4]

وقال تعالى " وإذ يتحآجون في النار فيقول الضعفآء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل ءأنتم مغنون عنا نصيباً من النار ۞ قال الذين استكبروا إنا كلٌّ فيهآ إن الله قد حكم بين العباد " .[5]

---

[1]. سورة إبراهيم : ٢١ .
[2]. سورة الأنبياء : ٥٢-٥٣ .
[3]. سورة الأحزاب : ٦٧ .
[4]. سورة سبأ : ٣٢-٣٣ .
[5]. سورة غافر : ٤٧-٤٨ .

– معارضة أصحاب القوة والسيطرة في الدولة للرسل والأنبياء :

لقد كان من الطبيعي والمنطقي أن يناضل أصحاب القوة والسيطرة من أجل الحفاظ على مكانتهم ووضعهم المتميز في مجتمعاتهم ، وأن يجتهدوا في سبيل ذلك بوأد أية قوى أخرى مناوئة ، وكبت أية دعوات أو نداءات قد تؤدي إلى النيل من تلك المكانة والحط من ذلك القدر ، فقد واجه أصحاب القوة والسلطان رسالات السماء ودعوات الرسل والأنبياء بالتصدي لها والعمل على دحضها والتقليل من شأنها ، وذلك لسببين :

○ السبب الأول : أن الدين كان مقترناً بقوة وسلطان المتنفذين في تلك المجتمعات البشرية القديمة ، فأولئك المتنفذون إما يعلنون من أنفسهم آلهة وأرباباً ، أو أنهم هم الوسطاء إلى الآلهة والأرباب ، ومن ثم فرسالات الله التي جاء بها الرسل والأنبياء ستكذّب هؤلاء وتنزع عنهم هيبة الهيمنة والسلطان ، وبالتالي تصرف عنهم المعاونين والأتباع ، ناهيك عن الخزي والصغار .

○ السبب الثاني : أن الرسل والأنبياء سيجردون أصحاب القوة والسلطان من قوتهم وسلطانهم عندما تتحول إليهم الأنظار ويلتف حولهم المؤمنون ، وفي ذلك انهيار لصروح الجبابرة من السطوة والعنفوان .

فكانت مقاومة كبراء تلك المجتمعات وسادتهم لرسالات الله ودعوات الرسل والأنبياء شرسة لا هوادة فيها ولا لين ، قال تعالى " كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمّت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب " .[1]

[1]. سورة غافر : ٥ .

وقال تعالى " ومآ أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوهآ إنا بمآ أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين " .[1]

* مفهوما الأمة والدولة في الإسلام :

لم يتعرض الإسلام ممثلاً في أساسيه - القرآن والسنة — لمفهوم الدولة ، نظراً لحداثة هذا المفهوم ، فهو لم يظهر إلى حيز الوجود إلا في الفكر السياسي الحديث ، كما أن الإسلام قد تعامل مع هذا الكيان أو التكوين البشري المنظم من منطلقات مختلفة ، وعلى أسس قد تكون متباينة عن الفكر البشري الموضوع ، إذن كيف ينظر الإسلام إلى ذلك الكيان المعروف باسم الدولة ؟ يمكن إيضاح ذلك في الآتي :

- المفهوم الأصلح للتعامل :

وردت ثلاثة مفاهيم تتعرض لمراحل معينة من أطوار المجتمع البشري ، وتتمثل هذه المفاهيم فيما يلي :

○ القرن : وهو يعني أمماً وأقواماً خلت وبادت منذ أزمنة تاريخية غابرة ، وعليه فالمفهوم يرتبط بتكوين بشري مقترن بفترة زمنية ماضية وشديدة القدم ، ومن ثم فلا يتواءم مع واقعنا المعاصر استعمال هذا المفهوم ، كما أن هذا المفهوم جاء مقترناً بالكفر والضلال ومخالفة رسل الله وأنبيائه ، مما جعل تلك القرون تستحق عقاب الله وانتقامه ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، يضاف إلى ما تقدم أن القرن يرتبط بالأشخاص والذوات أكثر من اقترانه بالمكان .

---

[1]. سورة سبأ : ٣٤-٣٥ .

○ القوم : يعني جمعاً من الناس يرتبطون فيما بينهم بروابط عديدة منها وأهمها الدين ، إضافة إلى روابط اجتماعية أخرى مثل اللغة وصلات القربى والدم ، وكذلك المصالح المشتركة فيما بين أفراد القوم نتيجة لتواجدهم في مكان واحد ، أيضاً للقوم كبراء وقواد يقتدون بهم في معتقداتهم وأفكارهم ، ومن ثم فعلاقة أفراد القوم التي تربطهم ببعضهم هي علاقة انتماء بالأساس .

○ الأمة : تعامل الإسلام مع الأمة بوصفها جماعة من الناس تعيش على أرض واحدة ، وتربطهم روابط تبرر وجودهم في مكان واحد ، وأهم هذه الروابط هو الدين ، وغالباً ما يتفاهم أفراد هذه الجماعة فيما بينهم بلغة واحدة ، كذلك قد يقود تواجد أفراد الأمة في مكان واحد إلى أن تغلب عليهم عادات وتقاليد متشابهة ، وعليه فالأمة هي الشكل المادي الواقعي للقومية ، فالأولي انتماء إلي فكرة وارتباطات أساسها عناصر ومقومات عديدة ، أما الثانية فهي رغبة وإرادة علي تجسيد الفكرة والارتباطات علي أرض الواقع في شكل كيان يحقق أهداف التجمع البشري .

والحق تبارك وتعالى قد بيَّن لنا كيف خلق الخلق ، وكيف أنشأ الخليقة منذ آدم عليه السلام ، وبيَّن لنا في كتابه الكريم كيف توالت الأمم متعاقبة على بعضها البعض ، وأوضح لنا في آيات عديدة كيف عاش كثير من تلك الأمم ، وكيف كان حالها من الإيمان أو الكفر ، وكيف أرسل إليها الأنبياء والرسل برسالات التوحيد لهدايتها إلى توحيد الله ولزوم طاعته ، وصوَّر لنا كذلك كيف عذَّب تلك الأمم وأهلكها بعد أن أقام عليها الحجة بإرسال الرسل والأنبياء ، فعصوا رسل الله وكذبوا بآياته ، ولا تزال آثار كثير من الأمم البائدة باقية قائمة آيات لأولي الألباب .

ويمكن أن نخلص من استعراض المعاني المختلفة للفظة " أمة " كما وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى أن الأمة هي الوحدة الأساسية التي وُجدت على ظهر الأرض وأعطاها الإسلام أهمية أوضحها خطاب الله إلى الناس في كتابه الكريم .

مما تقدم نخلص إلى الآتي :

□ لفظة قومية بمعناها المعاصر قد انحدرت من كلمة قوم التي وردت في القرآن الكريم والتراث العربي والإسلامي فيما بعد ، وهي تعني جملة الروابط التي تربط بين جمع من الناس ، فتنقل تجمعهم من الوقتية والعرضية إلى الاستمرارية والدوام ، وتتمثل تلك الروابط في الدين واللغة والعادات والتقاليد والمصالح المشتركة إضافة إلى رابطة الدم والرحم .

□ في حين تعني لفظة أمة ارتباط القوم أو الجمع التي تربط بينهم الروابط سابقة التبيان بموقع أو مكان معين ، ومعنى ما تقدم أن الأفراد والارتباط بينهم بالروابط السابقة يمثلون قومية ، أما إذا اختاروا موقعاً جغرافياً محدداً ليقيموا عليه عندئذ تكون الأمة ، مغزى ما سبق أن القومية مفهوم معنوي وجداني مرتبط بأفكار ومعتقدات ، أما الأمة فهي مفهوم مادي يتجسد في موقع ومجتمع وأناس تربطهم علاقات وروابط خاصة .

□ وعليه فالأمة هي المصطلح الأمثل للتعامل المعاصر ، فالأمة الإسلامية يرتبط أفرادها بعنصر الدين فقط دون ارتباطهم بأية روابط أخرى من جنس أو لون أو أصل أو لغة ، ولا يرتبط أفراد الأمة الإسلامية بالتواجد داخل منطقة جغرافية واحدة أو دول بعينها ومن هذا التحديد يمكن استنباط عنصرين أساسيين هما أساس قيام الأمة الإسلامية :

• عنصر الدين : حيث أنه هو الركيزة الأساسية والمحور الأوحد الذي ترتكز عليه وتتمحور حوله الأمة الإسلامية ، فالإسلام يربط بين أفراده مهما اختلفت لغاتهم أو أجناسهم أو أماكن تواجدهم وإقامتهم ، فالمسلم في السنغال ينتمي إلى الأمة الإسلامية والمسلم في كندا واستراليا كذلك .

• الدولة ليست عائقاً في سبيل قيام الأمة الإسلامية : الدولة بمعناها المعاصر ، وبتحديدها الشكلي القانوني لا تحد من وجود وقيام الأمة الإسلامية ، فالمسلم الذي يقيم في الولايات المتحدة الأمريكية ويحمل جنسيتها ينتمي إلى أبناء الأمة الإسلامية وكذلك المسلم المقيم في الصين أو في الهند ، ومن هنا يتضح عظمة الإسلام ورب الإسلام ، فلا يعوق قيام أمة التوحيد وترابطها وتماسكها أية حدود قانونية شكلية ضيقة أو أفكار بشرية محدودة .

– موقف الإسلام من الدولة بمعناها الوضعي المعاصر :

الإسلام دين الرحابة والسماحة يتعامل مع الواقع المعاصر كما هو مستخدماً قدرته الفائقة مع ذلك الواقع وتطويعه ، فالإسلام أعمق من كل فكر بشري وأرحب من كل أفق إنساني وأقدر من كل جهد آدمي ، وعليه فقد تعامل الإسلام مع الدولة بمعناها الوضعي المعاصر دون أن ينكر وجودها أو يرفض التعامل معها ، بل بالعكس تعامل معها بما يحقق صالح الإسلام وأبنائه ، وذلك من منطلقين :

○ المنطلق الأول : أن الدولة الحديثة التي تعلن الإسلام دينها الرسمي وتقوم بتطبيق شرع الله هي جزء من الأمة الإسلامية ، وهذه الدولة هي الدولة الإسلامية أو بعبارة أكثر دقة الدولة في الإسلام ، وتصبح الأمة الإسلامية كيان أو رابطة أو منظومة تتكون من مجموعة من الدول تتخذ من الإسلام ديناً ودستوراً ، وترتبط مع الدول الإسلامية الأخرى داخل إطار

الأمة الإسلامية برابطة الإسلام دون سواه ، والدولة الإسلامية تتسع لإقامة غير المسلمين إذا كانوا جزءاً من التكوين البشري والنسيج الاجتماعي للدولة .

○ المنطلق الثاني : إن الأمة الإسلامية تشمل كل المسلمين الذين يعيشون في دول إسلامية والذين يعيشون في دول غير إسلامية ، ومعنى ذلك أن الانتماء إلى الأمة الإسلامية يتجاوز حدود الدول وقوانينها وأنظمتها ، فكل مسلم يعيش في دولة غير إسلامية ينتمي إلى الأمة الإسلامية .

مما تقدم نخلص إلى القول بأن الدولة في الإسلام تحمل خصائص مميزة وترتكز على عناصر قد تختلف عن الدولة في الفكر البشري المعاصر ، ونفرد الجزئية التالية لإيضاح ذلك .

❖ عناصر قيام الدولة في الإسلام :

الدولة في الإسلام ترتكز على مجموعة من عناصر قد تختلف في بعضها عن عناصر الدولة في الفكر الموضوع ، ويتضح ذلك من خلال الآتي :

– الإقليم :

يعني مساحة الأرض التي تتبع الدولة ويقيم عليها مواطنوها ، وتشمل هذه المساحة اليابسة وما فوقها وما تحتها ، دون تحديد ، كذلك تضاف إلى مساحة إقليم الدولة المياه الإقليمية ، إذا كانت الدولة تطل على مياه بحار مفتوحة أو محيطات .

– المواطنون :

هم الأفراد الذين يتبعون الدولة ويحملون جنسيتها ، ولا يدخل الأجانب الذين يقيمون على إقليم الدولة في تكوين هذا العنصر ، وينبغي أن تسمح قوانين وتنظيمات الدولة الإسلامية للمسلمين بالإقامة على إقليمها وممارسة الأعمال والحرف كما هو الحال بالنسبة لمواطنيها دون أن يتعارض ذلك مع قوانينها وتنظيماتها .

– الحاكم : [إحالة] :

الحاكم أو ولي الأمر أو الحكومة تمثل عنصراً مهماً من عناصر الدولة في الإسلام ، ونحيل بخصوص دراسة الحاكم والحكومة إلى الفصل الثالث من هذا الجزء .

– الانتماء إلى الأمة الإسلامية :

من عناصر الدولة الإسلامية الانتماء إلى الأمة الإسلامية ، والانتماء إلى الأمة الإسلامية يعني أن الدولة تتخذ من الإسلام دينها الرسمي ودستورها المعمول به والواجب التطبيق ، فإذا كانت الدولة لا تتخذ من الإسلام دينها الرسمي ودستورها المعمول به والواجب التطبيق فهي ليست دولة إسلامية ، حتى ولو كانت تضم بين مواطنيها عدداً كبيراً من المسلمين .

فمفهوم الأمة قد سد هذه الثغرة في الدولة الحديثة بشكلها الموضوع ، فإذا كانت الدولة الإسلامية تشمل وتعم سكانها ومواطنيها من المسلمين ، فكيف الحال بالنسبة إلى المسلمين الذين يقيمون في دول غير مسلمة ، في هذه الحالة يشملهم ويعمهم ويظلهم مفهوم الأمة الإسلامية التي تشمل كل المسلمين سواء في الدول الإسلامية أو في الدول غير الإسلامية ،

حيث أن الرباط الوحيد بين الجميع هو دين الإسلام . فالمسلمون جميعاً أمة واحدة مهما اختلفت أوطانهم أو أماكن تواجدهم .

كذلك فإن مفهوم الأمة الإسلامية قد أعطى للتسامح الديني معناً سامياً لم يصل إليه ولن يصل إليه الفكر البشري ولو بعد آلاف السنين . فمفهوم الأمة الإسلامية الذي يربط بين المسلمين في كل مكان قد أعطى المسلم دون ضجيج أو طنطنة الحق في أن يعيش ويتعايش ويتفاعل مع كل الناس من جميع الأديان والملل والنِحل الأخرى في دولة غير مسلمة . بل وأوجب عليه أن يقدم القدوة والأسوة السلوكية لهذه الأخلاط من البشر . وأن يدع إلى سبيل ربه من خلال ممارسته لعبادته وشعائر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإذا جادل أو ناقش أو أوضح أو بيَّن أمراً من أمور الدين فبالتي هي أحسن .

وقد يثير البعض في هذا الصدد ما يعرف بإشكالية " توزُّع أو تشتت الولاء " فهذا البعض يرى أن المسلم عندما يعيش أو يقيم . وبصفة خاصة إذا كان بشكل مستديم أي يحمل صفة المواطنة ، في إحدى الدول غير المسلمة ، فإلي أي جهة في هذه الحالة ينصرف ولاؤه وانتماؤه . هل إلى دولته التي يعيش على أرضها ويحمل جنسيتها ، ويخضع لقوانينها وأنظمتها . أم إلى أمته الإسلامية التي يرتبط بها من خلال رباط الدين فقط .

وهذه المسألة التي اعتبرها ذلك البعض معضلة . هي لديهم كذلك ، ولكنها في واقع الأمر وبقليل من التفكير دليل دامغ وبرهان ساطع لكل ذي لب على أن الإسلام من الرحابة والسماحة بما يجعله يستوعب كافة الاتجاهات والتوجهات الفكرية ، ويحتوي جميع الأنماط والممارسات السلوكية ، فالمسلم المنتمي إلى جنسية دول غير مسلمة لن يجد صعوبة البتة في احترام قوانين دولته والخضوع لها وطاعتها . فما من دولة في العالم إلا وتضع القوانين والأنظمة التي تهدف إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من النظام والانضباط وتهذيب

السلوك وترشيد الفكر ، وهذه القوانين عندما تصل بمفعولها وتأثيرها إلى أقصى مدى لها تكون قد حققت الحد الأدنى من مراتب السلوك الإسلامي الذي قرره القرآن والسنة ، ومن ثم فستكون هناك نقطة التقاء وتلاقي بين قوانين تلك الدولة والنموذج الإسلامي في الفكر والممارسة .

أما إذا صادف المسلم بعض القوانين أو السلوكيات التي تتعارض مع النموذج الإسلامي في الفكر والممارسة ، فعليه باتباع أحد أمرين ، حسب الترتيب التالي :

○ الأمر الأول : أن يبذل قصارى جهده ، ويستنفد كل ما في وسعه من أجل الابتعاد عن ما يتعارض مع النموذج الإسلامي من قوانين أو أفكار أو ممارسات ، طالما أن عزمه وإصراره على الابتعاد عن تلك القوانين المسيئة لا يضيره في حياته أو في حياة من يعول أو يرعى ، أو لا يؤدي إلى إساءة العلاقة بينه وبين دولته ، وولاة الأمر فيها ، بما يجعل منه عنصراً خارجاً عن إجماع الناس شاقاً عصى الطاعة ، وقد قال تعالى " فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون "[1] .

وقال تعالى " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تُؤاخذنآ إن نسينآ أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينآ إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تُحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين "[2]، أي لا يكلف أحد فوق طاقته ، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم .

---

[1] سورة التغابن : ١٦ .
[2] سورة البقرة : ٢٨٦ .

○ الأمر الثاني : إذا لم يقدر للمسلم أن ينأى بنفسه عن القوانين المسيئة في دولته ، بعد أن بذل قصارى جهده واستنفد كل طاقته ، واستشعر أن في خرقه لتلك القوانين واعتراضه عليها وإعراضه عنها ما يصيبه بالضرر في نفسه أو في حياته أو في رزقه أو في عمله أو بمن يعول ويرعى ، أو يظهره كعنصر خارج على إجماع المواطنين ، عندئذ ينصاع لتلك القوانين بظاهر جوارحه ويعرض عنها بقلبه ووجدانه ، وقد قال الله تعالى " إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلآ إثم عليه إن الله غفور رحيم "[1]، أي فمن اضطر إلى افتعال منكر أو اقتراف سيئة وهو يقصد طاعة الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه فله الرخصة ، ومن عمد إلى المخالفة بغياً وعدواً وعن نية مسبقة فلا رخصة له .

قال تعالى " لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياآء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلآ أن تتقوا منهم تقاةً ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير "[2]، وقد تطرقت هذه الآية الكريمة بشكل واضح وصريح إلى إشكالية الولاء وتوزيعه — كما يخشى البعض — بين الولاء للإسلام وأمة المسلمين والولاء لدولة الإقامة والقائمين عليها من غير المسلمين ، وحقيقة الأمر أن الولاء لا يوزع ولا يتجزأ لأن الولاء أساساً شعور وحس يتطور إلى اطمئنان وطمأنينة واعتناق ثابت راسخ موضعه ومحله القلب ، والإيمان الصادق الراسخ محله كذلك القلب .

والمؤمن راسخ الإيمان ثابت العقيدة لا يمكن أن يوالى غير المؤمن ، لأن إيمانه بالوصف السابق يمنعه من ذلك ، وإذا والى غير المؤمن فإن إيمانه لا يمكن أن يكون ثابتاً راسخاً نابعاً من قلبه ، ومن ثم بات خارجاً عن دائرة المؤمن الصادق الإيمان .

---

[1] سورة البقرة : ١٧٣ .
[2] سورة آل عمران : ٢٨ .

والولاء والموالاة هي الحب الصادق النابع من القلب الذي يملك على الإنسان كل نفسه ، ويجعله ملكاً خالصاً لمن يحب ، والمؤمن يوالى المؤمن بهذا الوصف ، ولا يمكن أن يوالى غير المؤمن بنفس الوصف ، إلا أنه في بعض الحالات والظروف ذات الخصوصية قد يضطر المؤمن إلى موالاة غير المؤمن ، وهذا ينطبق على المسلم المقيم في دولة غير مسلمة ، وفي هذه الحالة يكون الولاء ظاهرياً أي بظاهر القول والفعل ، أما الولاء الحقيقي النابع من القلب والمستقر فيه فهو للإسلام والمسلمين ، وهذا الولاء الظاهري يكون اضطرارياً لاتقاء سطوة وقوة غير المؤمن ، إذا كان يملك ما يسيطر به على المسلم كالقوانين الوضعية وظروف ومتطلبات الحياة في الدول غير المسلمة .

وعليه فالتقية في هذه الحالة هي أداة أو ذريعة يُبرز من خلالها المسلم ظاهرياً موالاته لغير المسلم ، ويبطن أو يكن ولاءه الحقيقي الراسخ الثابت للإسلام والمسلمين ولأمة الإسلام ، التي تشكل له الأصل والأساس .

ويرد في هذا السياق قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :" إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم " ، وجوهر هذا الحديث الشريف يذهب إلى أن الله تعالى لا ينظر إلى ظاهر الأعمال التي قد يضطر المسلم إلى افتعالها لتجاوز ظروف وضغوط معينة ، ولكن ينظر إلى ما وقر في القلوب وهو أعلم بما تخفيه وتكتمه .

قال تعالى " من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم "[1]، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في شأن عمار بن ياسر حينما أخذه الكفار وعذبوه حتى قاربهم أي جاراهم في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبي ، فقال صلى الله عليه وسلم :" كيف تجد قلبك ؟ " ، قال : مطمئناً

[1] سورة النحل : ١٠٦ .

بالإيمان ، قال النبي :" إن عادوا فعد " ، وهذه الآية الكريمة والواقعة التي نزلت بخصوصها تحمل حكماً عاماً يقضى بأن المسلم الذي يُكره على مجاراة غير المسلم لا يؤاخذ ولا يأثم على أفعاله لأن قلبه عامر بالإيمان مطمئن إليه وولاءه للإسلام ولأمته .

– الاستقلال :

الدولة في الإسلام تتمتع بالاستقلال ويعتبر عنصراً من عناصر وجودها ، وهي لا تخضع لأية سلطة خارجية تحد من قدرتها على اتخاذ القرارات الخاصة بتنفيذ سياساتها الداخلية ، ولا مجال في هذا الموضوع للتفرقة بين الاستقلال والسيادة ، إذا قد سبق لنا تناول موضوع السيادة بوصفه إحدى قضايا الفكر السياسي المعاصر من وجهة النظر الإسلامية .

ولا يعتبر انتقاصاً من استقلال الدولة في الإسلام تفويض بعض السلطات إلى الحكومات المحلية لاتخاذ بعض القرارات وتنفيذ بعض السياسات الخاصة بالإدارة المحلية أو الحكم المحلي ، ويعرف ذلك بتفويض الصلاحيات والمسئوليات أو توزيع الاختصاصات .

* أشكال الدولة في الإسلام :

الدولة في الإسلام مثلها مثل الدولة في الفكر الموضوع ، تأخذ أحد شكلين :

– الدولة البسيطة :

وهي الدولة التي يتوحد فيها مركز السلطة وصنع القرار ، والدولة الإسلامية على هذا الشكل لا تدعوها الضرورة إلى تعديد مراكز السلطة واتخاذ القرار .

- الدولة المركبة :

وهي الدولة التي تدعوها الضرورة إلى تجزئة مركز السلطة واتخاذ القرار ، حيث تتكون من ولايات أو دول تتمتع ببعض الاستقلال الذاتي ، لتتمكن من تحمل بعض شئون الإدارة المحلية ، وللدولة في الإسلام والقائمين على شئونها أن يقرروا شكل الدولة الاتحادية أو المركبة حسب الظروف السياسية والجغرافية والاقتصادية .

obeikandl.com

المبحث الثالث

السياسة والحكم في الإسلام ونظرية المنهاج الإسلامي

[النظام السياسي]

في المبحث السابق تناولنا موقف الإسلام من نظرية الدولة ، ولاحظنا أن ذلك الموقف قد اتسم بخصوصية تتواءم مع طبيعة الدين الإسلامي التي تميزه عن الفكر الموضوع ، وبالمثل ننصرف في هذا المبحث إلى استعراض موقف الإسلام تجاه نظرية النظام السياسي ، منوهين منذ البداية إلى خصوصية ذلك الموقف وتميزه في كثير من المواضع والقضايا عن الفكر الموضوع ، وسوف نعمد إلى توضيح ذلك من خلال الآتي :

أولاً : تعريف النظام السياسي والمنهاج الإسلامي :

النظام مدرك وظيفي ، لم يبتكر من أجل الاستخدام السياسي بل هو مستعار من علم البيولوجيا أو وظائف الأعضاء ، والنظام حسب هذا الوصف السابق يعني مجموعة أجزاء (أبعاض) بينها علاقات متبادلة تعمل معاً من أجل تحقيق هدف معين بما يجعلها تبدو في النهاية كلاً واحداً .

ومن ثم فالنظام السياسي حسب الفكر الموضوع هو مجموعة من المؤسسات بينها علاقات متبادلة تعمل معاً من أجل تحقيق هدف محدد في ما يتعلق بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وتبدو هذه المؤسسات كما لو كانت كلاً واحداً .

مما تقدم نخلص إلي أن النظام هو أسلوب أو أداة أو وسيلة لتحقيق غاية عبر مجموعة مترابطة من العمليات ، وذلك كما ورد في الفكر السياسي الموضوع .

فما هو منطق الإسلام في التعامل مع فكرة النظام السياسي ؟ لقد انتهينا فيما مضى إلى استخلاص الآتي

* الإسلام يعرف الظاهرة السياسية ، ويعلي من شأن السياسة ، ويربطها دائماً بالأخلاق والقيم ، ويقرنها بالرياسة والقيادة ، ويتعامل معها علي أنها قيام الجماعة أو المجتمع المسلم بسياسة أموره وتصريف شئونه بالأصول والأسس والقواعد الشرعية المستنبطة من المرجعيات الإسلامية المحددة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة واختيار أولي الأمر والمسئولين الذين يتعهدون بتحمل المسئولية .

* كذلك فالإسلام يعرف الدولة ويعرف الأمة ، ويتعامل معهما كمفاهيم وظيفية ، وكحقائق مجتمعية ذات قيمة وشأن على المستويات القيمية والأخلاق والإنسانية .

* كذلك فالإسلام يعرف النظام السياسي قبل أن يعرفه ويتوصل إليه الفكر البشري ثم يستعيره من علم وظائف الأعضاء .

فقد عرف الإسلام النظام السياسي كأداة أو وظيفة مهمتها تحقيق غاية وهدف الدولة من خلال مجموعة من العمليات والتفاعلات ، فكيف إذن تعامل الإسلام مع نظرية النظام السياسي ؟ .

سبق أن أوضحنا أن الشِرعة أو الشريعة هي أصل الدين ومصدره ، والشِرعة أو الشريعة الإسلامية ترتكز على أساسين هما القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ولابد من أداة أو وسيلة أو

طريقة تضع ما يكِنه هذان المصدران من أحكام وأصول وقواعد موضع التطبيق ، أي وسيلة أو أداة تنقل الأحكام والأصول والقواعد من وضعيتها كنظريات وقواعد مجردة إلى أنماط سلوكية وممارسات عملية .

قال الله تعالى " إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً "[1] . والطريق هو طريق الله ، وهو السبيل إلى الخير ، والسبيل هو الأداة التي تنقل وتوصل إلى غاية أو هدف ، وإذا كان الهدف أو الغاية هو شرع الله ، فإن الطريق هو الأداة أو الوسيلة التي تحقق شرع الله وتوصل إليه .

وقال تعالى " قالوا يا قومنآ إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم "[2] . فالهداية إلى الحق فيما يتعلق بالاعتقادات والأحكام والأصول والقواعد ، أما الهداية إلى الطريق المستقيم فهي فيما يتعلق بالعمليات أو الواقع العملي التطبيقي ، فالطريق المستقيم وسيلة أو أداة تطبيق المعتقدات ونقلها إلى أرض الواقع .

وقال تعالى " وكذلك أوحينآ إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشآء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم * صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألآ إلى الله تصير الأمور "[3] ، أي انك يا محمد لتهدي الناس إلى الخلق القويم الذي يتضمنه شرع الله وشرع الله يتضمن المعتقد ويتضمن كذلك طريقة ووسيلة نشر المعتقد والعمل به وتطبيقه بين الناس .

---

[1]. سورة النساء : ١٦٨ .
[2]. سورة الأحقاف : ٣٠ .
[3]. سورة الشورى : ٥٢-٥٣ .

وقال تعالى " وأنزلنآ إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بمآ أنزل الله ولا تتبع أهوآءهم عما جآءك من الحق لكلٍ جعلنا منكم شِرعةً ومنهاجاً ولو شآء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في مآ ءاتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون "[1]، ولقد سبق لنا أن أوضحنا معنى الشِرعة أو الشريعة في جزئية مستقلة ، وبينا أن الشِرعة أو الشريعة تتضمن المصادر الأساسية الأولية للدين ، وفي الإسلام الشِرعة تعني القرآن الكريم والسنة المطهرة اللذين يحويان الأصول والقواعد والأحكام ، أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل البيِّن والطريق يعني الوسيلة والأسلوب اللتين عن طريقهما تنتشر وتُطبَّق الأصول والقواعد والأحكام .

وعليه فالمنهاج الذي تضمنه كتاب الله هو ما وصفه الفكر الموضوع بالنظام ، مع الفارق في حجم وشمولية وظيفة المنهاج ، ومن ثم فالمنهاج هو الطريق أو الأسلوب أو الوسيلة التي تحقق بها الجماعة السياسية أهداف وجودها والتي تعرف في النهاية بأهداف الدولة أو المجتمع .

مما تقدم نخلص إلى العناصر التالية في تعريف المنهاج الإسلامي :

– هناك تماثل وتناظر بين النظام والمنهاج في المعني والتكوين والوظيفة وأسلوب التفاعل وشكل التعامل ، مما يجعل النظام السياسي في الفكر الموضوع لا يختلف عن المنهاج الإسلامي إلا في اللفظ والمسمى وحجم وشمولية وظيفة كل منهما ، فكلاهما وسيلة وأداة وأسلوب لتحقيق أهداف معينة من خلال عمليات وتفاعلات خاصة .

---

[1]. سورة المائدة : ٤٨ .

– المنهاج ينطلق من منطلقات ثابتة ومحددة هي الأصول والقواعد والأحكام ، التي تتضمنها الشِرعة الإسلامية من خلال عنصريها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، أما النظام السياسي في الفكر الموضوع فهو ينطلق من أفكار ونظريات وآراء واجتهادات بشرية صيغت وتشكلت لتحقيق أهداف آنية قصيرة الأجل .

– المنهاج عبارة عن وسيلة وأداة ، والوسيلة أو الأداة تتضمن أجهزة وهياكل يتم تشكيلها بأسلوب معين حتى يتسنى لها القيام بمهمتها وهذه الأجهزة والهياكل منها ما تم تحديده وتعيينه بالقواعد والأصول ، ومنها ما ترك تشكيله وصياغته لظروف ومتغيرات المجتمع ومرئيات القائمين على المنهاج الإسلامي .

– للمنهاج وظيفة محددة تتمثل في تحقيق أهداف المجتمع أو الدولة ، وهذه الأهداف منها ما هو رئيسي أساسي وقد حددته الشِرعة الإسلامية ، ومنها ما هو فرعي ثانوي ترك تحديده وتعيينه لمرئيات القائمين على المنهاج الإسلامي .

– المنهاج ينصرف إلى تحقيق أهداف الدولة الإسلامية بشكل شامل وعام في كافة نواحي الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية ، وليس هناك منهاج سياسي أو منهاج اقتصادي أو منهاج اجتماعي ، ولكن للمنهاج وظائف نوعية سياسية واقتصادية واجتماعية .

ثانياً : كيف يعمل المنهاج الإسلامي ؟ :

المنهاج الإسلامي ليس نظرية وهمية أو خرافية ، غايتها الدعاية للإسلام بأنه يمتلك تقاليع وموديلات شبيهة بما يمتلكه الفكر السياسي الموضوع ، ولكن المنهاج الإسلامي مفهوم وظيفي وجوهر واقعي ملموس من الأنماط السلوكية والممارسات الفعلية ، يعمل على أرض

الواقع وتحيط به مجريات وتطورات ومتغيرات وثوابت ومستجدات ، له وظيفة لا يؤديها سواه ، ويحوي عدة عناصر ومفردات من ضرورات وجوده وصلب قوامه ، ولكن كيف يعمل المنهاج الإسلامي ؟ .

يعمل المنهاج الإسلامي ويدير جزئياته ومفرداته ، ويحقق وظائفه ومهامه ، عبر دينامية تشترك فيها كل أبعاضه ، وذلك على النحو التالي :

* الوسط :

يعني بالوسط الواقع أو الحياة بشمولها وعموميتها التي يوجد فيها المنهاج الإسلامي ويتفاعل معها ، وقد ذكرنا أن المنهاج الإسلامي يتولى تحقيق أهداف الدولة أو المجتمع ، ومن ثم فلابد أن يتعامل مع ذلك المجتمع الذي يتعايش معه ويعيش فيه وينقسم الوسط إلى مستويين :

– المستوى الأول : وهو المستوى الأضيق والأكثر تماساً ومباشرة مع المنهاج ، وهو المجتمع الذي يعمل فيه ويتفاعل معه ، بكل ما يوجد في ذلك المجتمع من مكونات وعناصر .

– المستوى الثاني : وهو المستوى الأرحب والأقل تماساً ومباشرة مع المنهاج ، وهذا المستوى ينقسم بدوره إلى أكثر من مستوى فرعي ، فهناك المستوى الإقليمي أو مستوى المنطقة الجغرافية التي تقع فيها الدولة ، ثم هناك المستوى الأكثر اتساعاً ورحابة وهو العالم أجمع ، ويلاحظ أنه كلما زاد اتساع ورحابة الوسط قل احتكاك المنهاج به وقل بالتالي التفاعل والتأثير المتبادل بينهما .

* أهداف الدولة الإسلامية : [إحالة][1] :

للدولة في الإسلام أهداف محددة حددتها مصادر التشريع في القرآن والسنة ، وتتمثل تلك الأهداف في ثلاثة أهداف :

- إقامة شرع الله في مجتمع الدولة الإسلامية .

- تحقيق مصالح المواطنين بكافة أشكالها الاقتصادية والاجتماعية .

- الدعوة إلى الله من خلال الوظيفة الاتصالية التي هي أهم أهداف السياسة الخارجية للدولة الإسلامية .

وسوف نتولى تفصيل هذه الأهداف في موضع لاحق .

* الدراسة واتخاذ القرارات وتحديد وسائل تحقيق الأهداف :

يتسلم المنهاج أهداف الدولة ، ويعكف على دراستها ، ويحدد لكل هدف من الأهداف الوسيلة الملائمة لتحقيقه ، ويقوم المنهاج بهذه العملية المركبة والمعقدة من خلال ثلاثة أجهزة وبأسلوب وترتيب معين نختصره في الآتي :

- مجلس الشورى ، أهل الرأي والمشورة : ويتكفل هذا الجهاز المكون من الخبراء وأهل الرأي والمشورة بدراسة وتمحيص أهداف الدولة وإعداد التقارير النهائية بأنجع الوسائل والأدوات الخاصة بتحقيق تلك الأهداف .

[1]. إحالة إلى الفصل الثالث من هذا الجزء والذي يحمل نفس العنوان .

obeikandi.com

– الحاكم أو ولي الأمر أو رئيس الدولة : في تشاور مع مجلس الشورى أو المجلس الاستشاري ، من أجل صياغة وسائل وأدوات تحقيق الأهداف ، ثم هو في تعاون دائب مع الجهاز التنفيذي أو الحكومة من أجل تنفيذ السياسات الخاصة بتحقيق أهداف الدولة التي بلورها الحاكم مع جهازه الاستشاري .

– الجهاز التنفيذي ، الحكومة : وتتولى الحكومة والجهاز التنفيذي مهمة تحقيق الأهداف وتنفيذ السياسات الخاصة بتلك الأهداف والتي بلورها الحاكم مع جهازه الاستشاري .

* وسائل تحقيق الأهداف :

تمثل وسائل تحقيق الأهداف النسق القيمي في المنهاج الإسلامي ، وكذا في النظرية السياسية الإسلامية ، وتتمثل هذه الوسائل في العدالة والإخاء والمساواة والحرية والوظيفة الاتصالية للدولة .

* النصح والتوجيه :

من أهم المسائل التي يتعامل معها المنهاج الإسلامي وأكثرها حساسية وخطورة مسألة النصح والإرشاد ، وهذه المسألة تعد من أهم القيم السياسية في الوقت الراهن ، فهي من ناحية تعني مشاركة أفراد المجتمع في أمور الحكم من خلال نقل رأي أصحاب الرأي والعارفين بالأمور إلى الحاكم أو صانع القرار أو رأس الدولة ، وهي من ناحية أخرى تعبر عن التواصل والمساندة بين الحاكم وأفراد المجتمع ، وسوف نفرد جزئية مستقلة لدراسة هذه القيمة في موضعها .

ثالثاً : وظائف المنهاج الإسلامي :

يختلف المنهاج الإسلامي عن النظام السياسي في الفكر الموضوع في كون الأول يؤدي وظائفه ومهامه بشكل عام وشامل لكل نواحي الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية ، فالمنهاج يحقق أهداف الدولة جميعها في كافة النواحي والمجالات ، أما النظام السياسي فهو وكما خُطط له يحقق أهدافاً محددة ويتولى وظائف بعينها داخل المجتمع .

وللإيضاح تجدر الإشارة إلى أن المنهاج الإسلامي وكما حددته الشريعة الإسلامية عبارة عن طريق أو أداة ووسيلة لتحقيق أهداف المجتمع في عمومه وشموليته أو الدولة كمنظّم ومرتّب لشئون المجتمع ، إلا أنه ينبغي التأكيد على أنه بالرغم من شمولية المنهاج الإسلامي في تحقيق أهداف المجتمع إلا أنه يحدد في داخله آليات معينة تتولى تحقيق تلك الأهداف حسب كل نشاط ومجال من مجالات الحياة ، فثمة آلية لتحقيق الأهداف الاقتصادية وثمة آلية لتحقيق الأهداف الاجتماعية وثمة آلية لتحقيق الأهداف الخارجية وهكذا .

في حين أن الأمر يختلف بالنسبة إلى النظام السياسي ، فالنظام السياسي ينصرف فقط إلى تحقيق أهداف الدولة ذات الطبيعة السياسية ، على اعتبار أن ثمة نظماً أخرى مثل النظام الاقتصادي والنظام المجتمعي ينصرف كل منها إلى تحقيق أهداف الدولة كلٌ فيما يخصه .

وهذا ما يثير في علم السياسة وفي الفكر السياسي الموضوع إشكالية علاقة السياسية بشئون الحياة الأخرى من اقتصاد واجتماع وإدارة وثقافة إلى آخره ، فقد قامت ولا تزال معارك حامية بين الدارسين والباحثين في مجالات العلوم السياسية والاقتصاد والاجتماع والإدارة حول من له الأولوية ومن يوجّه الآخر السياسة أم الاقتصاد وتحزَّب كلٌ لرأيه ولم يتم التوصل إلى نتائج حاسمة .

وفيما يتعلق بالطرح الإسلامي في هذا الشأن ، فالأمر جد مختلف ، فنحن إزاء وضعية متميزة من التناسق الفكري والعقلي ، فهدف المجتمع الإسلامي يختلف عن هدف المجتمع غير المسلم ، فالأول أهدافه محددة ومرتبة وثابتة بثبات الشريعة الإسلامية ، أما الثاني فأهدافه غير محددة ودائمة التغيير من حقبة تاريخية إلى أخرى ، ومن حكومة معينة ونظام سياسي معين إلى حكومة أخرى ونظام سياسي آخر ، فكل حقبة تاريخية لها ظروف وتطورات ، وكل حكومة أو نظام سياسي له اهتمامات خاصة وأولويات متباينة .

فالمجتمع المسلم يستمد أهدافه ومبررات وجوده من الشريعة الإسلامية ، ومن ثم فهو يحدد أهدافه وأهداف الدولة بشكل واضح ومتميز ، ثم يحدد بالتالي طريقة ووسيلة تحقيق تلك الأهداف جميعاً ممثلة في المنهاج الذي يتولى تحقيق تلك الأهداف بشكل كلي شامل ، ويلاحظ أن أهداف المجتمع أو الدولة تحدد المنهاج الذي يتولى تحقيقها ، وفي المجتمع غير المسلم تختلف الأمور حيث يقسم المجتمع إلى عدة أنظمة فرعية سياسية واقتصادية واجتماعية ، وتعمل كل هذه النظم وترتبط ببعضها عبر علاقات ارتباط تبادلية .

شكل بياني رقم (١) نظرية المنهاج الإسلامي في السياسة والحكم في الإسلام

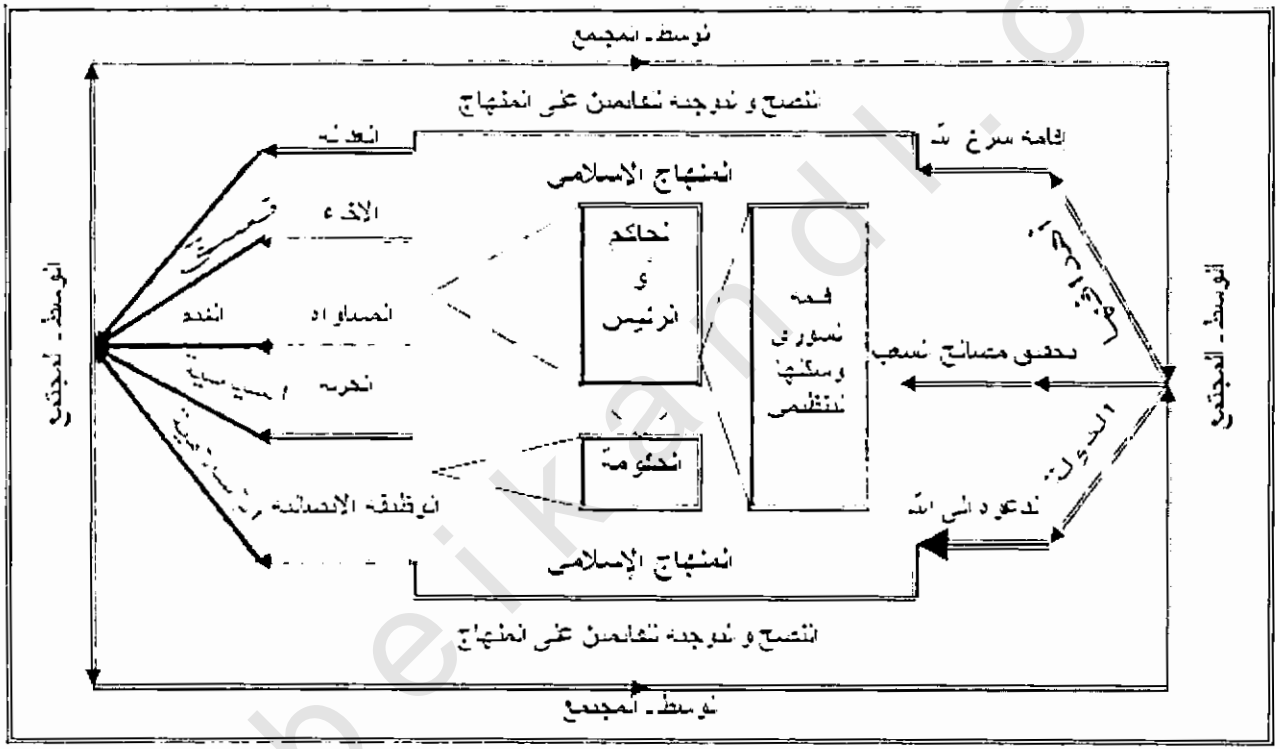

رابعاً : عناصر المنهاج الإسلامي :

يحتوي المنهاج الإسلامي على ثلاثة عناصر رئيسية تشترك ثلاثتها في إدارة وتشغيل المنهاج حتى يتسنى له القيام بوظائفه المحددة في تحقيق أهداف الدولة ، وهذه العناصر هي :

* الحاكم أو رئيس الدولة :

هو رأس الدولة وأساس المنهاج ومحركه ، وهو من القضايا الجوهرية في النظرية السياسية الإسلامية ، ولا يُعير الفكر السياسي الموضوع الحاكم أو الرئيس الأهمية اللازمة ، وانطلاقاً من الأهمية التي تعطيها النظرية السياسية الإسلامية للحاكم أو الرئيس فسوف نفرد له جزئية مستقلة وتحليلاً مفصلاً .

* الحكومة :

على عكس الاهتمام المتواضع للفكر السياسي الموضوع بمسألة الحاكم أو الرئيس يبدي ذلك الفكر اهتماماً ملحوظاً بالحكومة ، أما المنهاج الإسلامي فيضع الحكومة في نصابها الصحيح كعنصر من عناصره وكقوة مساعدة للحاكم في إنجاز مهمة المنهاج وتحقيق أهداف الدولة ، وسوف نتناول الحكومة في جزئية مستقلة كعنصر من عناصر المنهاج .

* مجلس الشورى :

هو الانعكاس الواقعي لقيمة الشورى ، هذه القيمة العليا التي رسخها الإسلام منذ ظهوره قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، وهذا الجهاز أو الهيئة يعتبر عنصراً مهماً من عناصر المنهاج الإسلامي وله وظائف عديدة فهو يعكس مساهمة ودور أفراد المجتمع في الحكم ،

كذلك فهو أداة مساعدة ومساندة للحاكم تعينه على صياغة وإعداد وسائل تحقيق وإنجاز أهداف الدولة ، كذلك يقدم النصح والإرشاد والتوجيه للحاكم وقت اللزوم ، وسوف نقوم بتفصيل هذا العنصر في جزئية مستقلة .

obeikandl.com